

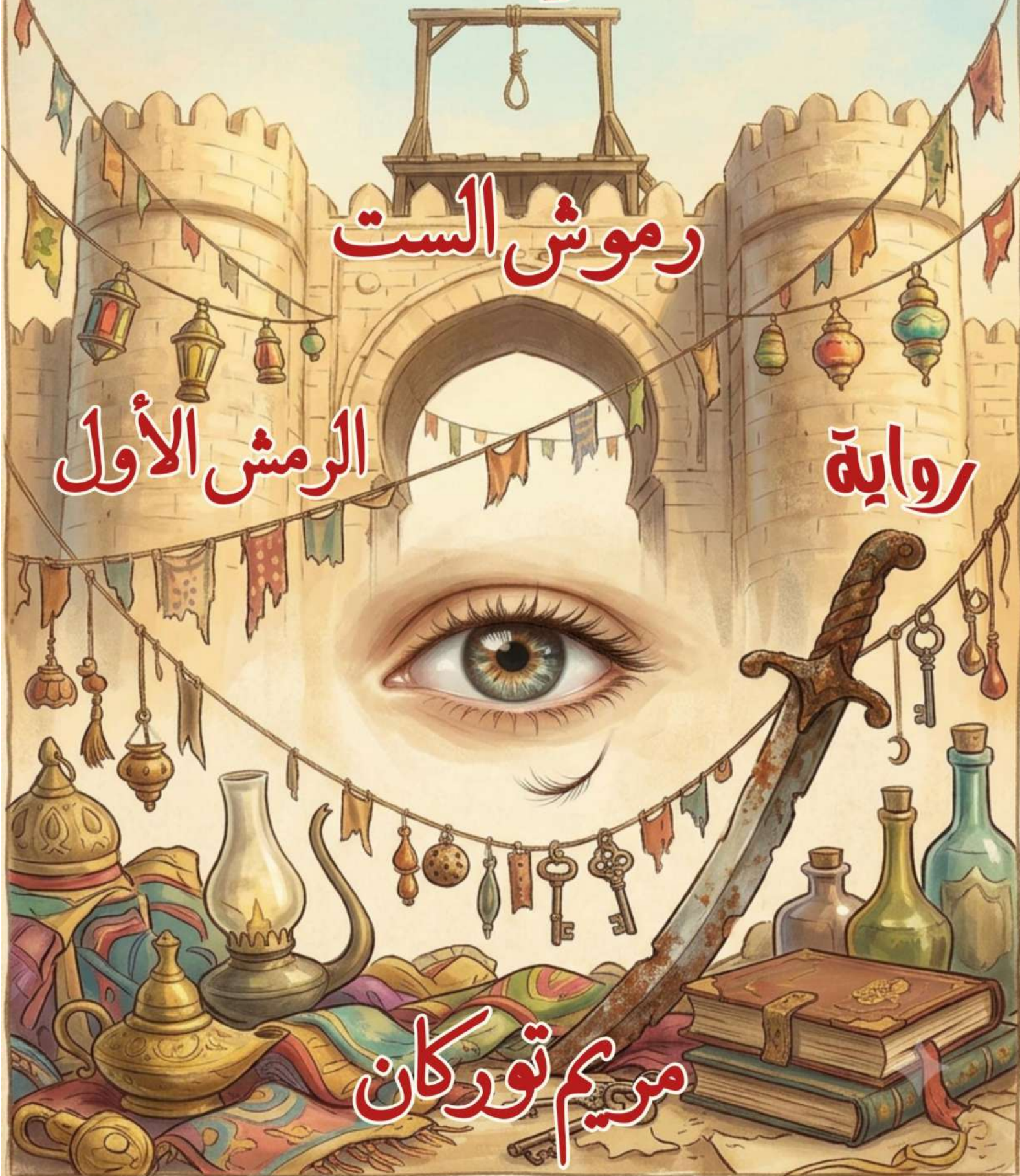
سلسلة حاجات ومحطات

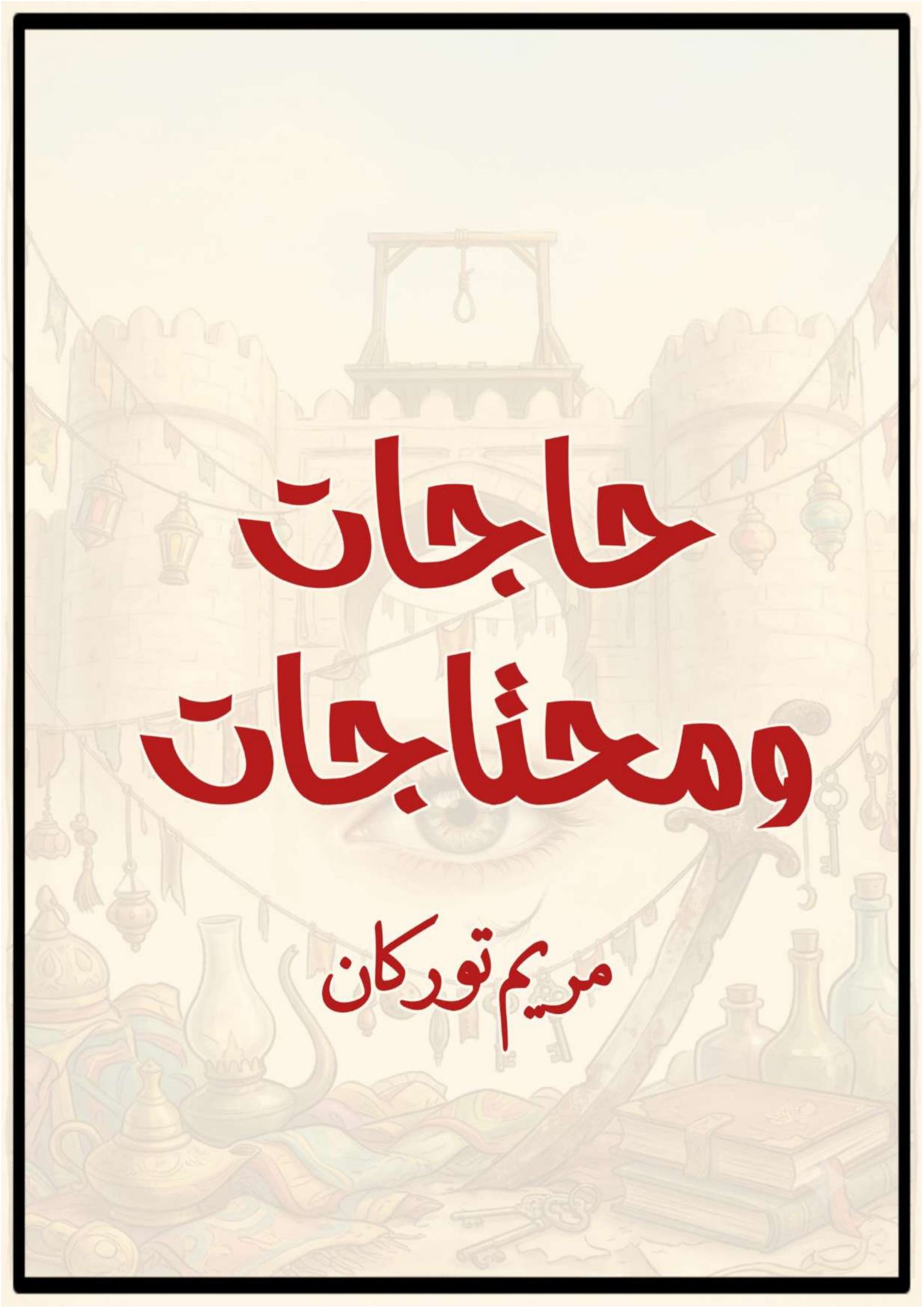
رموش الست

الرمش الأول

رواية

مريم توركان





حاجات ومحاشات

مریم تورکان

اسم العمل: حاجات ومحتاجات

"رموش الست" الرمش الأول

اسم الكاتبة: مريم توركان

نوع العمل: سلسلة روايات

تدقيق لغوي: مريم توركان

تصميم الغلاف: مريم توركان

تنسيق داخلي: مريم توركان

الإهداء

إلى ابني الذي أنجبته حروفي "منصور"
أمان الله عليك أينما حللت، قد عشت
تجربة الأمومة بفضلك، وما أجملها من
تجربة!

دام نبض قلبك ولك مني السلام.

ماما ماري

الإهداء الثاني

إلى من غزل من الحروف شمسًا
أضاعت ليل روايتي...

إلى الشاعر المبدع / مجدي عبد القادر

شكرًا لأنك لم تكتب مجرد قصائد، بل
سكنت من روحك زجلاً أعطى
لشخصياتي صوتًا، ولحكاياتي نبضًا.
شكرًا لأن كلماتك كانت اللحن الأجمل في
هذا العمل.

مريم توركان

الفصل الأول

لم تكن الشعيرات الفضية في رأسي، بل
في رأس الشاب الأربعيني الذي يقف
أمامي حاملاً كوب شاي بالحليب! نظرت
إلى انعكاسي في مرآة الخزانة الخشبية
القديمة؛ كنت أنا، الفتاة ذات الثمانية
وعشرين عامًا، بنفس ملامحي وعينيّ
الناعستين وشعري الفاحم المسترسل.

لكن الغرفة لم تكن غرفتي، والشاب
الذي يرتدي نظارة طبية وينظر إليّ
بحنوٍ بالغ لم يكن أبي بالتأكيد.

تراجعت خطوة إلى الخلف عندما اقترب
مني يربت على كتفي بهدوء قائلًا:
صباح الخير يا أمي.. هل نمت جيدًا
الليلة؟

"أمي"!؟.. ترددت الكلمة في عقلي
وكان صاعقة كهربائية قد أصابتني!

أخرستني الصدمة تمامًا فجزت عن
النطق.

تراجعت لأغلق باب دورة المياه الخشبي
عليّ بمزلاج حديدي، وسندت ظهري إلى
الباب البارد وأنفاسي تتلاحق.

كيف حدث هذا؟

تذكرت البارحة.. تذكرت تلك الليلة
الهائلة حين كنت أمزح مع جدي عندما
سقط رمش من رموش عيني اليمنى،
فقلت لي: قد طرق الحظ بابك بنيتي،
ففي كل رمش من رموش عينك اليمنى
الناعسة تكمن أمنية مؤكدة تحقيقها،
وعليك الآن أن تتمني أمنية مبتكرة.. لا

بد وأن تكون أمنيّةك مبتكرة غير
مستهلكة؛ لكي تتحقق سريعاً دون
تعطيل.

مازحت جدتي ففكرت لبرهة ثم قلت: قد
تمنيت أن أكون أمّاً لابن يشبهني، أفيض
عليه من الأمومة حتى يشبع، وأصب
عليه الحنان صبّاً حتى يرضى.

أحبه ويحبني، أمازحه ويمازحني، أكن
له خير معين ويكن لي سنداً وظهيراً.

أتحمل لأجله ما لا أطيق من حمل
ومخاض، ولأجله أستبدل اسمي باسمه
فيكون "أم منصور" بدلاً من "ماري"!

لم أكن أعلم أنّ أبواب السماء كانت
مفتوحة، وأنّ تلك الأمنية المجنونة

ستمسخ واقعي لتبدأ أولى فصول

كابوسي التاريخي الحي.

أمي، هل أنت بخير؟

قالها وهو يطرق باب دورة المياه.

جاءه ردها من الداخل محملاً بالغضب:

أنا لست أمك، دعني وشأني رجاءً.

تنفس بعمق ثم قال:

حسنًا، ولكن افتحي لنا الباب من فضلك.

بكت وبكت وبكت حتى احمرت عيناها،

حاولت النهوض لكن سرعان ما شعرت

بدوار شديد.

نادته:

أغثني من فضلك.

لا عليك، ولكن ابتعدي عن الباب.

قالها بخوفٍ كثيفٍ.

لم تستطع التحرك وغابت عن الوعي.

ناداها ولكن لا أحد يجيب، أسرع إلى
الحديقة الخلفية للبيت، حاول خلع نافذة
دورة المياه ومن ثم الدخول منها،
وأخيرًا نجح الأمر.

دلف مسرعًا حملها بين ذراعيه بعد أن
فتح الباب، ثم صعد بها الطابق العلوي
ووضعها بغرفتها الفخمة، واستدعى لها
طبيب العائلة.

أتى الطبيب القاطن بجوارهم، فحصها ثم
تبسم ضاحكًا وقال: منذ متى وأنت تحلم
بأن يكون لك أخ يا سيد منصور؟

منصور بدهشة: منذ زمن، ولكنه حلم
مستحيل.

تبسم الطبيب مصطفى قبل أن يضيف:
رحم الله أباك؛ فقد حقق لك حلمك قبل أن
توافيهمنية بشهرين فقط!

منصور بذهول: ماذاااا؟

مصطفى: أتعجب من أمر الله؟

منصور: لا، ولكن كيف؟

مصطفى: إنما أمره إذا أراد شيئاً أن
يقول له كن فيكون.

منصور: ونعم بالله العلي العظيم، ولكن
أمي قد قاربت على الستين!

مصطفى: ربما تكون قد ورثت جينات
الخصوبة من جدتك، ولتعلم بأنه لا سن
محددة في هذا الأمر، فالنساء لسن كلهن
سواء.

نظر منصور إلى الطبيب ولم يستطع
الرد؛ إذ أعجزته الصدمة عن النطق!

فتحت عينيها على مهل، رأت نفسها في
غرفة رحبة فخمة الأثاث والبنية، سرير
ملكي بلون عينيها العسليتين، وكذا
خزانة ملابس بنفس اللون غير أن بها
ثلاثة ألواح زجاجية تزين الأبواب.

سجاد عجمي بلون الشفق الأحمر يغطي
الأرضية، بالإضافة إلى تسريحة ملكية
جمعت بأدراجها صنوف العطور،
والكحل الفاحم وكذا طلاء الشفاه الأحمر
بجميع درجاته.

نظرت حولها فوجدت المزهريات تزين
زوايا الغرفة، وقد امتلأ بالورد الأحمر
البلدي الذي تفضله.

أعجبها كثيرًا ورق الحائط المبهج الذي
يغطي الحوائط، بالإضافة للسقائر
الجميلة بألوانها الجذابة.

أمعت النظر إلى الحائط فوجدت صورة
معلقة على الجدار، اقتربت منها
واستعانت بالوقوف على أحد المقاعد؛
لكي تصل إليها.

أمسكتها وتأملتها جيدًا فوجدت نفسها
وهي صغيرة بجوار رجل يكبرها بكثير،
حدقت به جيدًا فإذا به يشبه إلى حد كبير
ذلك الشاب الأربعيني، الذي رآته منذ
قليل.

وقبل محاولتها الربط بينهما، طرق
منصور الباب ودلف.

رأته فاختل توازنها وسقطت على الأرض، أسرع إليها يناديه بأمي.

نهضت على مهل وقد أمسكت ظهرها وأخذت تتأوه، ساعدها منصور وأوصلها إلى سريرها.

جلست والخوف يظهر من وراء قهوة عينيها، أمسك منصور يدها بحنان بالغ وحاول تقبيلها لكنها منعتة، وغضبت عليه حتى كادت أن تصفع وجهه.

تبسم لها منصور ضاحكًا وقال بهدوء: أعلم أنه كان يعني لك الكثير، لا مجرد زوج وحسب.

أعلم أيضًا الصدمة التي أصابتك نتيجة الحادث، لكن ما لا تعلمينه أنتِ أُمي أنك...

قاطعته بعصية:

لستُ أمك، ثم إنني فتاة عذراء عشرينية
كيف لي أن أنجب ابنًا يكبرني بعقد
ويزيد؟!!

سقطت دمة حانية على وجنة منصور
قبل أن يربت على كتفها بحنان:
أنتِ سيدة النساء أمي يا تاج رأسي
ومهجة قلبي.

هنا تساقط دمعها قبل أن تضيف:

سأخبرك بالحقيقة شريطة أن تطلق
سراحي.. في تلك الليلة الهائلة تمنيت
أمنية وأنا أمزح مع جدتي، بعدها بيوم
حصل لنا حادث ونحن عائدون من
السفر، فوجدت نفسي هنا في هذا البيت

الكلاسيكي العجيب، وهذا كل ما في
الأمر.

ضحك منصور حتى بدت نواجزه:

ستظلين خفيفة الظل يا أمي وهذا الشيء
قد ورثته عنك.

نظرت إليه بغضب وتابعت:

لست أمك أيها الأربعيني البائس!

أنا عذراء كيف لي أن أنجب بدون
زواج؟

بل كيف لي أن أنجبك أنت يا شحط؟

هنا انفجر منصور ضاحكًا حتى دمعت
عيناه.

نهضت من جلستها وحاولت المشي
لكنها توقفت فجأة، واستدارت إلى
منصور قبل أن تسأله:

ما هذه الرائحة؟

منصور بابتسامة:

إنها الرائحة التي تفضلينها أمي.. رائحة
السمن البلدي، دادة فريدة تقوم بقدحه
الآن.

ما إن انتهى من حديثه حتى سأله عن
دورة المياه وأسرعت إليها.

غابت بداخلها عدة دقائق حتى أفرغت
معدتها تمامًا ثم خرجت.

خرجت تمسك بمعدتها وقد تعرق
جبينها، فأخذت حبات العرق تتلأأ على
بشرتها الدهنية وكأنها حبيبات لؤلؤ!

من فضلك استدعي لي طبيبًا، فجهازي
الهضمي في حالة اضطراب؛ نتيجة
لتسمم قد أصابني.

تبسم منصور لها قبل أن يخبرها:

قد استدعيتُ الطبيب بالفعل حين غبتِ
عن الوعي أُمي وأخبرني بالأمر.

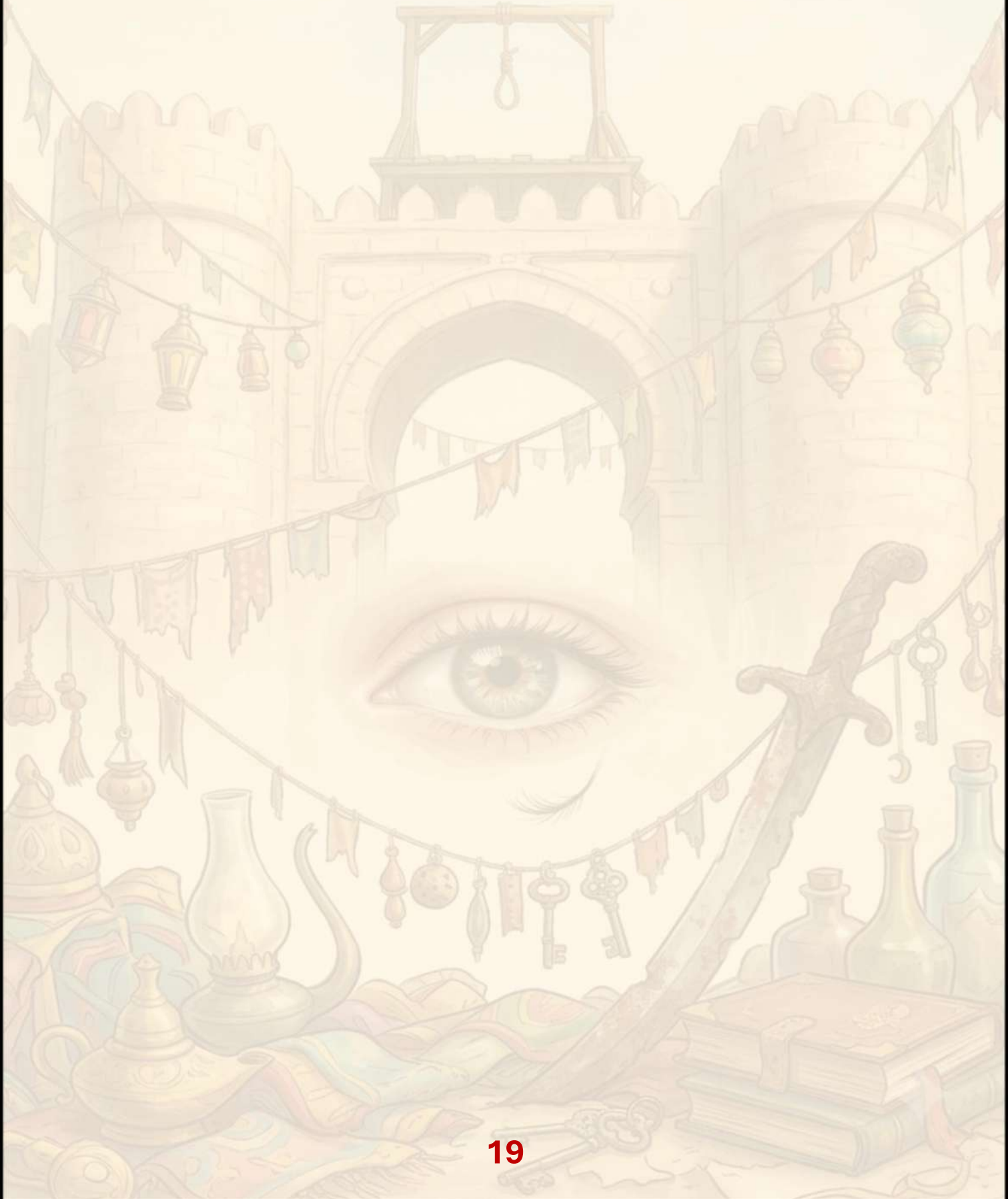
وماذا قال لك؟

قالتها بصوت واهن.

منصور وقد اقترب منها هامسًا:

ليس تسممًا أُمي.. بل هو حملٌ يا أم
منصور!

ما إن سمعت ماري مقالته حتى سقطت
مغشياً عليها.



الفصل الثاني

حملها منصور وأعادها إلى غرفتها مرة أخرى.

وضعها في الفراش وقبل يmanها وغادر.

رأت نفسها في عالم ساحر كالذي تراه في ديزني لاند، فرحت وانطلقت تعدو كطفلة مريحة.

تداعب الفراشات تارة، وتداعبها الفراشات تارة أخرى، وهكذا حتى جاءها من بعيد طيف رجل كأولئك الذين تراه في أفلام الأبيض والأسود.

ما إن رآها حتى هش لها وبش، ثم اقترب منها ووضع يده على خصرها والأخرى على رقبتها وأخذ يراقصها.

نظرت إليه مطولاً في محاولة منها
لتذكره، لكن ذاكرتها لم تسعفها فابتعدت
عنه، تبسم لها وقال: ابنة قلب عبد
القوي وزوجته الودود.

شهقت قبل أن تضيف: من عبد القوي؟
وعن أي زوجة تتحدث يا هذا وأنا لا
زلت بكراً عذراء؟!!

أرجو أن تعي ما تقول قبل أن تنطق به.
ضحك عبد القوي حتى بدت نواجذه، ثم
قال: هكذا عهدتك يا جميلة الروح.

والآن كيف حال ابنا الذي تركته لك قبل
أن أرحل؟

تحسست ماري بطنها بيد مرتعشة،
وقالت: أوقد حملت منك؟

اقترب منها وربت على كتفها بحنان، ثم
قال: بالطبع قد حملت في تلك الليلة
الهائلة التي قضيناها معاً، حين كان
منصور في رحلة مع زوجته وأبنائه.

ماري متسائلة: ومن يكون منصور؟

عبد القوي مبتسماً: ابننا البكر الذي
حملت فيه في ليلة زفافنا منذ ثلاثة
وأربعين عاماً.

أتذكرين ليلة زفافنا وما فعلته بي وقتها
يا مجنونة؟

ماري بفضول: ماذا فعلت؟

عبد القوي ضاحكاً: قد صفعتني على
وجهي حين حاولت تقبيلك، وأخذت
تبكين لعدة ساعات إلى أن تحدثت معك

وأفهمتِكِ ما كان غائبًا عن عقلِكِ
الشُّقْلُوب، ثم وافقتني و....

ماري مقاطعة: هذا يكفي، إن كنت
زوجي كما تزعم فلتخبرني عن شيء لا
يعرفه أحد عني.

تبسم لها عبد القوي وقال بثقة: شقْلُوبك
الذي يقتلني ضحكًا.

ماري بثقة: شقْلُوبي ها!

إذن أنت مدعٍ يا حضرة.

عبد القوي بذات الثقة هامسًا لها في
أذنها: تجيدين رقص السلو والسالسا
معًا.

عضت ماري على شففتها خجلًا
وهمست: كيف عرف هذا الرجل أنني

أحب رقص السلو والسالسا، وكنت
أخطط لأرقصهما مع زوجي المستقبلي؟

عبد القوي بذات الهمس: وقد حدث ما
تمنيتِ ورقصنا معًا هذه وتلك حتى
أشبعني دلالاً يا زوجتي.

ماري بغضب: زوجة مين يا جدو أنت؟
أنا آنسة والله العظيم آنسة.

عبد القوي ضاحكًا: لو لم ترثي جينات
وشباب عائلتك؛ لظهر عليكِ عمركِ الآن
بدلاً من الشباب الذي يطفئ على
ملامحكِ وروحكِ.

أعجزتها الصدمة عن الرد.

اقترب منها عبد القوي أكثر ووضع يده
على بطنها، ثم قال: فاطمة.. سأسميها
فاطمة.

ماري متعجبة: من هذه التي ستسميها يا هذا؟

عبد القوي وقد أعاد وضع يده على
بطنها ثانية: بضعتي التي تركتها هنا..
في داخلِك أميرتي الحلوة الجميلة.

احمرت وجنتاها خجلًا ولم ترد.

[illegible]

لا يمكن لهذا أن يحدث!

أسرع إليها منصـور بعدما سمع صراخها.

وجدتها قد اعتدلت في جلستها تبكي حتى
تكاد أنفاسها تنقطع.

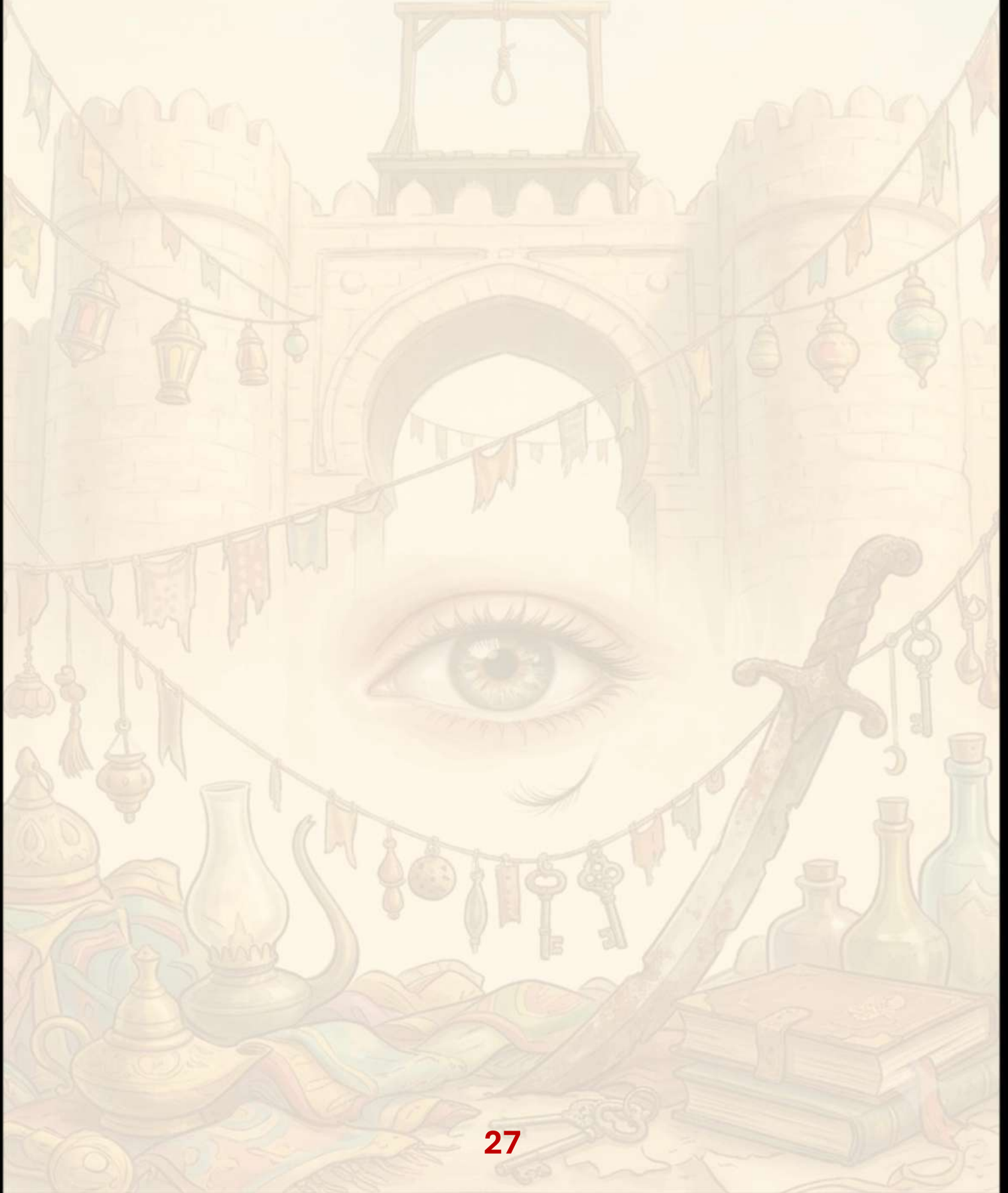
قدم إليها كوب ماء بارد، قائلاً: بسم الله.
تناولته منه ثم تجرعتَه على مهل
وقالت: شكرًا لك.

من فضلك، أشعر بالجوع.
منصور بعدما قبّل يَمَناها: الغداء جاهز
يا أمي.

ماري بغضب طفولي: لستُ أمك، اذهب
بعيدًا عني الآن.

ابتسم منصور وهمّ بالمغادرة، نادته
بصوت واهن: من فضلك ساعدني،
أشعر بتعب غريب.

أسرع إليها منصور وساعدها حتى
أوصلها إلى غرفة تناول الطعام.



الفصل الثالث

سفرة عامرة بالخيرات، أرز بالشعيرية،
وبامية مطهوه على مهلٍ بها قطع من
لحم الماعز، بالإضافة إلى الملوخية
الخضراء بطشتها الشهيية، وسلطة
طماطم لذيذة.

نظرت ماري إلى السفرة، وتفقدتها جيّدًا
ثم قالت: لا، لا أريد تناول هذا الطعام.

منصور متعجبًا: كيف وأنتِ من تفضّلين
لحم الماعز وجميع هذه الأطباق؟
ماري بدهشة: ماذا؟

لم أفعل، على الأقل هذه الأيام فأنا لا
أطبق النظر إلى هذه المائدة؛ أشعر
بالغثيان المفاجئ.

منصور بعدما كاد أن يُجن: حسنًا أمي،
كما تريدن.

ماري بغضب طفولي: قلت لك لستُ
أمك، كيفَ لي أن أحمل وأنا عذراء بغير
زوج؟!

أخبرني يا مُتعلّم يا بتاع المدارس!
ضحك منصور حتى بدت نواجذه، ثم
سألها عن الطعام الذي تريده؟

فأجابته: أشتم رائحة الرنجة الحادقة،
أو عندكم رنجة؟
منصور مبتسمًا: لا.

ماري بعدما قطبت حاجباهما: كيف
ورائحتها تسكن أنفي الآن؟

منصور بخجل: يبدو أنك تتوهمين أمي؟

ماري بغضب طفولي عارم: ماذا تقول
أنت يا عمو؟

بعيد الشر عني.

كم مرة أخبرتك بأنني عذراء غير أنك لا
تُتصت لمقالتي.

آه يا معدتي! كاد الجوع يقتلني.

أسرع منصور إلى الهاتف، وبعد
لحظات: سيكون ما تريدينه حاضرًا بعد
ربع ساعة على الأكثر أُمي؟

ماري بعدما جلست على الأريكة: ربع
ساعة! لم كل هذا التأخير؟

منصور مبتسمًا: ريثما يقومون بتجهيز
طلبك أُمي.

ماري بهدوء: هلاً حجزت لي موعد مع
طبيبة نساء؟

منصور: حسناً أمي، يمكنك الذهاب متى
شئت.

ماري: أبهذه السهولة دون موعد
مسبق؟

منصور مبتسماً: أنت لست كأحد أمي،
متى شئت يمكنك الذهاب.

ماري: أود الذهاب بعد عصر اليوم.

منصور: حسناً أمي.

أخذت تتجول في البيت فوجدت الألبوم
العائلي الخاص بحفظ الصور، فتحتة
وشرعت في تفقده فإذا بها تصرخ: لا،
مستحييل!

أسرعت إليها دادة فريدة تسألها ما
الخبر؟

نظرت إليها وقالت: من أنت وماذا
تريدني مني؟

تبسمت لها دادة فريدة وقالت بصوت
حان: أنا دادة فريدة، خادمتك سيدتي.

ماري وقد اقتربت منها: إذا أنت من كنت
تقدحين السمن البلدي، وتسببت لي في
قيء مستمر؟

فريدة: خادمتك سيدتي، وقد فعلت ما
أمرتني به.

ماري متسائلة: أنا من أمرتك بفعل
ذلك؟

فريدة بثقة: أجل سيدتي.

ماري مندهشة: كيفَ حدثَ هذا، وأنا لم
أرك في عمري سوى هذه المرة؟!!

فريدة وقد تساقط دمعها: رحم الله سيدي
عبد القوي، كان يعني لك الكثير، لذا
أصابتك الصدمة حينَ علمتِ بخبر وفاته.

ماري بغضب: أمجنونة أنت؟

عبد القوي ليسَ زوجي، هو والد
منصور وصاحب هذا البيت، أمّا أنا فلا
زلتُ آنسة، لم يسبق لي الزواج لا بعبد
القوي ولا بغيره.

وتابعَت وهي تتحسس خصرها بيدٍ
حانية: صحيح أنه جنتل مان،
رومانسي، رجولته تطفئ على ملامحه
المميّزة، لطيف وحنون، وهمست:

ويراقصني السلو والسالسا.. إلا أنه
ليس زوجي أيضًا.

بكت فريدة وانصرفت إلى عملها
بالمطبخ، بينما أخبر عم سعدون
الجنائني منصور بأن طلب الهانم قد
حضر من عند الفسخاني.

استلمه منصور وحاسب المنذوب، ثم
أعطاه لدادة فريدة كي تُعده لماري قبل
أن تقدمه لها.

رآها تجلس بالحديقة شاردة الذهن،
قطف وردة حمراء كما تُحبّ وقدمها لها
بعدما قبّل رأسها.

أخذتها منه وقد ظهرت عليها السعادة،
ابتسمت وقالت بهدوء: شكرًا لك أستاذ
منصور.

تبسم لها منصور وقال: على الرحب
والسعة أُمي.

لم تكثرث ماري لكلمة أُمي وتابعت: هل
بقيَ الكثير على الطعام؟
أشعر بجوعٍ شديد.

منصور مناديًا على فريدة: دادة فريدة
أين الطعام؟

لم ينتهِ منصور من جملةِ الأخيرة،
وكانت دادة فريدة تقف أمامه لتخبره أنَّ
السفرة جاهزة.

نظر إلى ماري فرأها لا زالت في
شرودها، أمر فريدة بأن تأتي لها
بالطعام لتتناوله بالحديقة.

دقائق معدودات وكانت السفرة تُزين
الحديقة، سفرة عامرة بالرنجة
والبطاطس المحمرة، وشرايح الليمون
الأخضر، وكذا زيتون كالاماتا، وبطارخ
رنجة مقرمشة مقلية بطريقة تفتح
الشهية.

جلست ماري وبجانبها منصور يتناولان
الطعام.

نظرت ماري إلى السفرة وقالت: أين
الخبز؟

أحب تناول بطارخ الرنجة بالعيش
البلدي؟

تبسم منصور وقام إلى المطبخ فأتى
بالخبز وعاد.

عيادة فخمة، رحبة جميلٌ أثاثها، بها
تلفاز كبير لتسلية المرضى حتى يتسنى
لهم مقابلة الطبيبة.

يافطة كبيرة تُزين بلكونة العيادة من
الخارج، وأخرى صغيرة تُزين وجهة
العيادة.

دكتورة "صفاء عيد" أخصائي النساء
والتوليد.

ضغطت على الزر فجاءتها ندى تلهث:
أمركِ حضرة الطبيبة؟

أخبرتها قائلة: على تمام الخامسة
ستأتي مدام ماري، لا تدعيها تنتظر ولو
لثانية، متى قدمت مسموح لها بالدخول
فورًا.

ندى: حسنًا حضرة الطبيبة كما تريدن.

نهضت ماري بعدما أكلت: الحمد لله.

منصور: أبهذه السرعة؟

ماري مبتسمة: قد شبعنا والحمد لله.

منصور بعدما نهض هو الآخر: بالهناء
والشفاء أُمي.

ماري: تسلم يا أستاذ منصور.

أيمكنك أن تنادي لي دادة فريدة؟

منصور: بالطبع أُمي.

راح ليناديها، بينما ماري أخذت تتفقد
مداخل ومخارج البيت والحديقة.

خطرت على بالها فكرة مجنونة؛ إذ
قررت الهرب من هذا البيت الكلاسيكي
العجيب.

وقبل أن تُقدم على هذه الخطوة، جاءتها
فريدة.

فريدة ببسمةٍ صافية: أمركِ سيدتي.

ماري: أرغب في تناول بسبوسة
بالقشطة بالسمنة البلدي الليلة إذا
سمحتِ؟

فريدة بسعادة: من عيوني سيدتي،
سأجعلكِ تتذوقين بسبوسة فريدة التي لا
مثيل لها.

تبسمت لها ماري ثم صعدت الطابق
العلوي؛ حيثُ غرفتها الكائنة لترتاح
بعض الوقت.

ما أن وضعت رأسها على الوسادة حتى
جاءها طيف عبد القوي كعادة أحلامها
في عالمها الجديد.

تبسم لها ضاحكًا وقال: أشتاقُ إليك
جميلتي الصغيرة.

أعرضت عنه ماري ولم ترد.

أقبل إليها محاولًا عناقها: ألا تشتاقيين
لعناق زوجك عبد القوي؟

ماري محاولة الإفلات منه: زوجك مين
يا جدو؟

ابعد عني رجاءً.

عبد القوي ضاحكًا حتى بدت نواجذه:
كنت هكذا أيضًا حين حملت بمنصور.

ماري بفضول: ماذا تعني بهكذا؟

عبد القوي: لا رغبة لك بي حتى
وضعت.

ماري بغضب طفولي: دعك من هذا
وأخبرني عن أي زوجة تتحدث؟

عبد القوي بثقة: عنك يا زوجتي
العزيزة.

ماري بصوت مرتفع: أنا آنسة يا أبو
منصور، آنسة لم يسبق لي الزواج لا بك
ولا بغيرك، وسأذهب اليوم إلى طبيبة
النساء كي أؤكد لكم جميعًا صحة ما
أقول.

عبد القوي ضاحكًا: أنا أدري من الطبيبة
بهذا الأمر، وأقول لك إنك زوجتي وأم
أبنائي.

تركته ماري وأخذت تجري في الحديقة
حتى بلغت بابًا مكتوب على واجهته
"حاجات ومحتاجات.. رموش الست".

الفصل الرابع

وقفت أمام الباب تنظر إليه بذهول.

يا إلهي ما هذا الجمال!

جاءها صوت عبد القوي من الخلف:
الجمال الحقيقي هو أنتِ جميلتي
الصغيرة.

استدارت وما أن فعلت حتى فوجئت بعبد
القوي يحملها بين ذراعيه، ثم اقترب من
الباب ففتح له دون مقاومة.

دلف بها وأسرع إلى إحدى الغرف
والمكتوب على بابها "الرمش الأول"!

وضعها على السرير واستلقى بجوارها.

استغلت نومه وأخذت تتجول في جنبات
الغرفة حتى عثرت على ضالتها؛ كتاب

ككتب الأساطير مزخرف الغلاف وجميله
بشكل جذاب.. معنون بالرمش الأول!

فتحت الصفحة الأولى وقبل أن تقرأها،
كان صوت منصور قد أعادها للواقع
مرة أخرى.

فتحت عيناها على مهلٍ وقالت بهدوء:
ماذا هناك؟

منصور مبتسمًا: حان الموعد أمي؟

ماري متسائلة: أي موعد؟

منصور: موعد طبيبة النساء.

ماري: كم الساعة؟

منصور: الرابعة ونصف أمي.

ماري: من فضلك ساعدني لأهبط من
سريركم العجيب هذا.

ساعدها منصور حتى دخلت دورة
المياه، ثم أجرى اتصالاً هاتفياً بالعيادة
ليؤكد الموعد.

خرجت ماري وقد بدلت ثوبها الحريري
بثياب الخروج.

صعدت إلى السيارة، جلست حتى
استقرت فقاد بها منصور حتى وصلا
إلى عيادة الطبيب.

سارت نحو السلم لكنَّ منصور أوقفها
أمام المصعد الكهربائي، تساءلت: ماذا
هناك يا أستاذ منصور؟

أجابها منصور بابتسامة، وقال
بهدوء: سنصعد بهذا المصعد أمي؛ إذ
العيادة في الطابق التاسع.

ماري: ماذا؟ الطابق التاسع!

لكنني أخشى المصاعد وقلبي يؤلمني
منها.

منصور بعدما ربت على كتفها بحنانٍ
بالغ: لا تخافي أُمي، فأنا معكِ وبجانبكِ.

استسلمت للأمر؛ لعلمها بجسدها
المرهق الذي لا يقوى على الصعود عبر
السلم.

حملَ عنها منصور حقيبةَ يدها، ودخلا
المصعد.

ما أن ضغط منصور على رقم 9 بعدما
أغلق الباب، حتى ظهر الذعر على ماري
فخفق قلبها بشدة وتعرق جبينها، وكادت
أنفاسها تنقطع!

أخذت تبكي حتى احتضنها منصور قائلاً:
لا تخافي أُمي، أنا ابنك منصور معك ولن
أتركك أبداً.

وأخيراً توقف المصعد عند الطابق
التاسع، خرج منصور حاملاً ماري بين
ذراعيه بعدما فقدت وعيها من شدة
الذعر.

رأته ندى فأسرعتْ بفتح باب غرفة
الفحص، وضعتها على السرير وغادر
كما أخبرته الطبيبة صفاء.

حاولت معها صفاء حتى استفاقت، فتحت
عينها بصعوبة.. الأجواء متوترة.

وجدت نفسها تجلس على طرف سرير
الفحص المعدني، جسدها يرتجف، تنظر
بذهول إلى الستارة القماشية وإلى

الطبيبة التي ترتدي قفازًا مطاطيًا سميًا
وبيدها منظار معدني بارد.

صفاء بنبرة هادئة: ماري، استرخي من
فضلك كي أستطيع فحصك.. الحمل في
بدايته ولا بد من الفحص اليدوي لأتمكن
من معرفة حجم الرحم!

ماري بانفعال: فحص يدوي إيه يا طنط
أنت؟

صفاء بهدوء: كُفّي عن التشنّج كي
يسهل عليّ فحصك.

ماري بعدما دفعت يدها بعيدًا عنها،
وضمت ساقها إلى صدرها وهي تبكي
بهستيرية: مستحيل أخليك تلمسيني!
أنت مش عارفة أنا إيه؟

صفاء مبتسمة: لا أعرف، أخبريني كي
أعرف.

ماري: أنا عذراء يبقى تبعدني عني
بفحصك دا.

قهقهت صفاء، ثم قالت: عذراء!
عن أيّ عذراء تتحدثين وقد وضعت
منصور على يديّ هاتين!

ماري بانفعال: لا لم يحدث، يبدو أنكم قد
اتفقتم عليّ، حسناً سأبحث عن طبيبة
أخرى تفحصني لتؤكد لكم أنني لا زلتُ
أنسة.

اقتربت منها صفاء وقالت بهدوء: رحم
الله عبد القوي، كان يُحبُّك بكل ذرة في
كيانه، ورغم فارق السن بينكما إلا أنه

أصر على الزواج منك، كما فعلتِ أنتِ
الأخرى.

كان يقول لي دائماً: ماري ليست زوجتي
فحسب، بل هي ابنة قلبي وصاحبتي.

ماري وقد تساقط دمعتها: أريد العودة
إلى البيت.

ضغطت صفاء الزر فجاءت ندى.

صفاء بعدما تنهدت: ندى، نادي
بشمهندس منصور من فضلك.

هندمت ماري ثيابها وقالت: دكتورة
صفاء، أنصحك باستبدال هذا السرير
العجيب الغريب بسرير حديث كالموجود
في جل العيادات.. مش معقولة منظره
دا.

صفاء بهدوء: هذا السرير هو ذاته
الموجود في جل عيادات مصر، وهذا
الفحص الذي لا يعجبك هو أحدث وسائل
الفحص في الثمانينات!

ماري وقد اتسعت عيناها: في إيه؟
الثمانينات!

قصدك 1980؟

قهقهت صفاء وقالت: بل أقصد 1985
يا أم منصور.

ماري بذهول: كيف؟

كيف يحدث هذا؟

إنني لم أولد بعد!

طرق منصور الباب ثم دخل بعدما
سمحت له صفاء.

منصور مبتسمًا: كيف حال أمي وأخي؟

صفاء: لم تسمح لي بفحصها فلم أضغط عليها.

كيف حالك وحال فريال وعبد الله وعبد الرحمن وعمر؟

منصور بعدما قبل يمينها: بخير وقد أرسلوا لك السلام عمتي.

هنا نظرت إليهما ماري بدهشة وقالت: عمتك؟!

أهي عمتك؟

منصور: نعم، هي عمتي أمي.

صفاء بعدما اقتربت من ماري: حتى هذه نسيتها ماري!

ماري بغضب طفولي: لم أنس شيئاً،
ولكنني لم أولد في هذا العصر، أنا من
زمنٍ لاحق، عام 2026!

نظرت صفاء إلى منصور بقلق، وتابعت
بهمس: يبدو أن الصدمة قد أثرت
عليها، وعلينا أن لا نضغط عليها كي لا
نُفقد ما بقي من ذاكرتها.

منصور بذات الهمس: حسناً عمتي.

تساقط دمعها كطفلةٍ يتيمة غاب عنها
والدها: من فضلك أريد العودة إلى
البيت.

منصور بعدما قبّل يмнаها: هيّا بنا أمي.

دخلا المصعد لكنّ ماري لم تشعر بالذعر
هذه المرة؛ إذ صدمة الزمن قد أشغلتها
تمامًا عن كل شيء وأي شيء.

الفصل الخامس

أوقف السيارة أمام البيت، أرادت ماري
أن تهبط لكنه أمسك يدها بحنانٍ وقال:
ما رأيك أمي أن نذهب إلى الكورنيش؟
نظرت إليه بابتسامة وأومأت له
بالإيجاب.

دقائق وكانا قد وصلا إلى الكورنيش، قام
بركن سيارته بعيدًا وفضلا السير على
الأقدام.

حاول منصور أن يخفف عن ماري
صدمتها، فبدأ الحديث أثناء سيرهما:
أشعر بك أمي، فلفقد الزوج صدمته

الخاصّة، خاصّةً إن كان يعني لزوجته
الكثير كما كان أبي بالنسبة لكِ.

قد تزوجكِ صغيرة ورُبيتِ في كنفه
ورعايته، كان لكِ زوجًا وأبًا وأخًا،
وحبيبًا وصاحبًا، بل كان كل الرجال
بقلبك وعقلك.

أتذكرين أمي حينَ أريتني دفترَ مذكراتكِ،
وقد دونتِ فيه أشعاركِ لأبي.

هنا توقفت ماري عن السير، وأمسكتُ
بيدهِ قائلةً: ماذا قلت؟

أشعاري؟

إذن أنا شاعرة؟

منصور مبتسمًا: بالطبع شاعرة أمي،
ولديكِ العديد من القصائد الشعرية.

ماري متسائلة: أين هو الدفتر؟

منصور بهدوء: في البيت أمي،
سأعطيك إياه حين نعود.

ماري بعدما تنهدت: حسناً اتفقنا

أثناء سيرهما رأت كلباً فاقتربت من
منصور أكثر حتى تعلقت بذراعه.

نظر إليها بحنوّ بالغ وابتسم.

شاهداً بائع المثلجات، فعرض عليها
منصور أن يبتاع لها فوافقت على الفور
وقالت بمرح طفولي: عايزاه آيس كريم
شيكولا.

ابتاع لها منصور ما أرادت.

قابلا بائع غزل البنات فقالت هي
لمنصور بلهفة طفولية: من فضلك
عايزة من دا.

مرّ أمامهما بائع الحلوى، فأمسكت بيد
منصور كطفلة تدفع أباها لجلب الحلوى:
عايزة عسلية كثير، لو سمحت جيب لي
كل الكمية اللي مع عمو دا.

كانت كلما رأت شيئاً تُحبُّه طلبت من
منصور أن يبتاعه لها، حتى عادت إلى
محلّة بالحلوى والمثلجات وغزل
البنات.

بدلت ثوب الخروج بثيابها الحريرية،
ونادت منصور ليعطيها الدفتر.

منصور بعدما طرق الباب وأذنت له
بالدخول: ها هو الدفتر أُمي.

نظرت إليه فشعرت بقشعريرة تسري في
جسدها؛ إذ كان كدفترها في عالمها
الواقع.

أخذته منه وشكرته، ثم أغلقت عليها
الباب بعدما انصرف وأخذت تتصفحه.

ما هذه الروعة!

دفتر ماما ماري.. يا له من اسم جميل!

لنبدأ قراءته، بسم الله.

أصابها الدهشة حين رأت أول قصائده،
عبودي قلب ماري.

تذكرت حين فتحت ألبوم الصور العائلية
فوجدت نفسها مع عبد القوي، تجمعهما
الصور على مر الزمان وباختلاف
المناسبات.

ها هي الآن ترى قصائدها الشعرية،
التي كانت تسرّ بها لدفترها عن زوجها
المستقبلي، وقد أضحت حقيقة ومكتوبة
في عبد القوي!

فتحت دفترها القديم بأصابع ترتعش،
كمن يفتش في ركام السنين عن نبوءة
منسية. تطلعت إلى السطور التي خطتها
ذات يوم بمداد الأمل، فبدأت الكلمات
أمامها الآن كأنها تُبعث من جديد، لتتلق
بلسان حكايتها العامي البسيط:

يا سامعين صلّوا عالنبي المختار

واسمعوا حكاية تشرح القلب وتحتار

دي ماري فتحت دفترها من جديد

فاكرة إنه مجرد ورق... لكنّه وعد أكيد

أول ما قلبت الصفحة... سكت الكلام
ولقت قلبها مكتوب قدامها من غير أحلام
كل كلمة كانت كتبتها في زمان
بقت حقيقة... بفضل الرحمن
عبد القوي بقى هو نفس الحكاية
ونفس البطل اللي كانت بتحلم بيه في
النهاية
قصايد كانت بتستخبي بين السطور
بقت دلوقتي عايشة وسط النور
والدمعة نزلت... لا خوف ولا أنين
دي دمعة فرحة من قلب مستكين
سبحان اللي بيكتب الأقدار بحكمة
وحساب

ويخلي الحلم يوم... يبقى أجمل من
الجواب.

وضعت الدفتر جانبًا وأخذت تتجول في
الغرفة.

فكرت وفكرت وفكرت حتى هداها
تفكيرها للهرب!

بدلت ثيابها وأخذت تُراقب الحركة من
النافذة، وبينما منصور مشغول في
مكتبه ودادة فريدة تمارس عملها في
المطبخ، خرجت ماري وقد استقلت
سيارتها، التي أهداها إيّاها منصور بعد
الحادث مباشرة.

ركبت السيارة وانطلقت بها تجول
شوارع وسط البلد.

تبحث هنا وهناك عن الشارع الكائن به
بيت أبيها.

مرت ساعة على هذا الحال دون جدوى.

انتهى منصور من مقابلته لأحد رجال
الأعمال، نادى دادة فريدة وأمرها أن تُعدّ
العشاء لماري وتصدق به إليها، لتتناوله
بغرفتها على راحتها.

فعلت فريدة ما أمرها به وصعدت الطابق
العلوي، طرقت الباب عدة مرات ولكن لا
أحد يُجيب.

حاولت فتح الباب لكنه مغلق بإحكام.

أسرعت إلى منصور وأخبرته بالأمر،
فما كان منه إلا أن أسرع إلى الغرفة،
حاول فتح الباب ولمال لم يفتح له، قام
بكسر الباب ودلف فإذ بالمفاجأة التي

أذهلته؛ ماري قد هربت وتركت خلفها
جوابًا بخط اليد كتبت فيه.. إلى أستاذ
منصور، سلام الله عليك، أحببت أن
أشكرك على كل ما فعلته لي طيلة
تواجدي عندكم ببيتكم الكريم.

قد قررت أن أعود إلى حيثُ جئت، إلى
بيت أبي الذي تم اختطافي منه من قبل
والدك بشمهندس عبد القوي عيد!

والآن دعوني وشأني رجاءً.

توقيع: ماري مجدي.

تساقطت عبارات منصور حتى ابتلّ
الجواب، كفكف دمه وأسرع إلى
الحديقة، استقل سيارته وانطلق بها
باحثًا عن أمه.

رآها مجموعة من الشباب كانوا
يتسكعون في الشوارع، اقتربت منهم
بسيارتها وقالت لهم: من فضلك يا هذا
ألا تعرف فيلا المهندس مجدي الرفاعي؟

نظر بعضهم إلى بعض وقال قائلهم:
بالطبع نعرفها، من الذي لا يعرف
المهندس مجدي الرفاعي؟

إذ هو أشهر من النار على العلم.

ماري مبتسمة: شكرًا لك، أين أتجه؟

رد عليها بهدوء: بل نحن من سنوصلك
إليه مخافة أن يتعرض لك أحدهم.

ماري متسائلة: ولكنكم جيل الطيبين
الذين نسترجع ذكراهم، ونضرب بهم
المثل في القيم والأخلاق والشهامة.

رد عليها آخر: الحق معكِ أختي، ولكن
لكل قاعدة شواذ، صحيح أننا جيل
الطيبين لكن هذا لا يمنع وجود قلة من
عديمي الأخلاق. ماري بعد برهة: الحق
معكم، هيا اركبوا إخوتي.

ركب الثلاثة معاً وانطلقت بهم طبقاً
لوصفهم الطريق لها.

بحث عنها ولم يجدها، خشي عليها أن
يُصيبها مكره خاصّة بعد الحادث
المروع الذي نجت منه، وراح ضحيته
والده، وأصيبت هي بصدمة على إثرها.

أوقف سيارته أمام قسم الشرطة، دلف
واستأذن في الدخول على اللواء عز
الدين مجدي.

دلف منصور بعدما أذن له اللواء عز
الدين.

اللواء عز الدين بعدما نهض من
مجلسه: أهلاً بك يا ولدي.

منصور مصافحاً إياه: الحمد لله سعادة
اللواء.

اللواء عز الدين: هل أطلب لك قهوة أم
شاي؟

منصور بحزنٍ شديد: لا داعي للشراب يا
سيادة اللواء.

اللواء عز الدين: ماذا هناك بُني؟

هل حدث خطبٌ ما لماري؟

منصور وقد تساقط دمعته: إن لم نلحق
بها سيحدث لها خالي.

عز الدين منفعلاً: ماذا حدث أقلقيني يا
ولدي؟

حكى له منصور تفاصيل ما حدث، وما
إن انتهى حتى نهض اللواء عز الدين
من مكتبه وأسرع إلى سيارة منصور.
استقلاها وأسرعاً في البحث عن ماري.

الفصل السادس

شعرت ماري ببعض الدوار أثناء قيادتها
للسيارة فتوقفت على الفور، نظرت
الشباب إلى بعضهم البعض ثم قال
قائلهم: يبدو أنك متعبة أختي؟

ماري وهي تمسك برأسها: أجل، أشعر
ببعض الدوار.

اقترح ثلاثتهم أن يكمل أحدهم قيادة
السيارة حتى يصلوا لقيلا المهندس
مجدي الرفاعي.

وبعد محاولات استمرت لدقائق، اقتنعت
ماري برأيهم وهبطت من السيارة ليحل
محلها أحدهم.

جلست بجوار السائق وقد أغضت
عينها من شدة الدوار.

أخذوا يتهامون فيما بينهم، ثم اتفقوا
على أن يأخذوها لبيت أحدهم كي ترتاح
بعض الوقت؛ ريثما يذهبون هم إلى قिला
المهندس مجدي ويعودون به.

لم تستطع الجدل أو الرفض؛ لتعبها
وشعورها بالإرهاق الشديد.

حملها أحدهم وقد غابت عن الوعي، ثم
صعد بها إلى الطابق العلوي من بيتهم،
بينما تبعه الآخرون.

دلف غرفة النوم، وضعها على السرير
وخرج وأغلق خلفه الباب.

أخذوا يتحدثون فيما بينهم فقال أحدهم:
ما رأيكم في الفتاة؟

رد حسين: هي ملكٌ لنا جميعًا عابد، أم
ماذا رجب؟

رجب بثقة بالغة: بالطبع ملكٌ لنا جميعًا
حسين، وسنقوم بعمل الواجب معها من
فحول مثلنا تجاه فتاة جذابة مثلها.

عابد: حسنًا، ولكن سأبدأ أنا بها،
فانتظروا هنا حتى أنتهي وأناديكما.

جاءها طيف عبد القوي كما يفعل دومًا
فور نومها أو إغمائها.

كانت راقدة على سرير مزعج مكتوفة
الأيدي والقدمين، تحاول جاهدةً فك قيدها
ولكن دون جدوى.

أخذت تبكي وتنتحب حتى رأت طيف عبد
القوي فنادته: عبده، عبده، أنقذني
أرجوك!

أسرع إليها عبد القوي، فك وثاقها
وحملها بين ذراعيه، وأعادها لغرفتها
في حاجات ومحتاجات، تحديدًا غرفة
الرمش الأول.

وضعها على فراشها واستلقى بجانبها،
اقتربت هي منه حتى التصقت به،

وأخذت تنتظر يُمنّة وَيَسرة وجسدها
يرتعش.

اعتدل عبد القوي في جلسته حاضناً
إياها، وقال بهدوء: أراك راضية عني
اليوم جميلتي الصغيرة.

نظرت إليه ودمعها يتساقط ولم ترد.
أخذ يمسح على شعرها بيدٍ حانية حتى
نامت بحضنه ونام هو الآخر.

على الجانب الآخر، صعد عابد الطابق
العلوي من قِلا والده، مُتجهًا نحو
الغرفة التي ترقد فيها ماري.

فتح الباب على مهل ودلف ثم أغلقه
خلفه بالمفتاح، وضع المفتاح جانبًا
وجلس بالقرب من ماري يتأملها.

يا إلهي!

أكل هذا جمال!

لولا خوفي من رفض أبي لتزوجتك في
الحلال، كي تكوني ملكًا لي وحدي بدلًا
مما سنفعله بك الآن.

آه على حظك عابد!

لن أضيع وقتي في اللوم والندم، أريد أن
أشبع رغبتني منك يا امرأة.

اقترب منها أكثر وشد عنها الغطاء، ثم
شرع في نزع ملابسها.

خلع عنها حجابها فأنكشف شعرها
الفاحم المسترسل، اقترب منها وأخذ
يبتسم عبيره.

ثم عالج مزلاج عباؤها بيد عجلة
فاستعصى عليه، فلم يصبر؛ بل شقَّ
درعها شقًّا، لتتكشَّف بضاضة صدرها
الناصع كالنور المنحسر عنه الغمام.

تسمَّر عابد في مكانه، وشَلَّت الدهشة
أطرافه وهو يشخصُ بنظراته إلى ذلك
البياض الأسير؛ بدا صدرها كأنه قطعة
من مرمرٍ خالصٍ نحتته يدُ فنان، أو كأنه
جوهرة نادرة خرجت للتو من مكنها.

فتح عبد القوي عَيْنيه على اتساعهما
وناداهما بلُطفٍ: ماري، ماري أنقذي
عرضي وابنتنا!

أخذَ هذا النداء يتردد في أذنها حتى
استفاقت.

فتحت عينيها على اتساعهما وشهقت
شهقة مذعورة زلزلت كيانهما، وجذبت
إليها الغطاء فالتحفت به؛ لتستر به ما
انكشف من جسدها.

نظرت إلى عابد وهي تبكي، وقالت
بصوتٍ متهدج: بالله عليك يا هذا لا
تؤذني وجنيني.

سألتك بالله ألا تؤذني في نفسي وابني.

نظر إليها عابد مطولاً ثم قال: حتى وإن
لم أفعل فإن رجب وحسين ينتظران؛ كي
يفعلا بك ما لم يكن يوماً بحسبانك.

فدعيني أقضي وطري ولن أرهق
جنينك!

توقف دمعها فجأة، وتحولت نظراتها
المتوسلة إلى نظرات نمرة لا يقوى أحد
على مواجهتها.

حاولَ التقدم لكنَّ جسدها الذكي قد تذكر
أنها كانت تُجيد رياضة الكاراتيه، فما
كانَ منها إلا أن عاجلتهُ بلكمةٍ قضت
على حلمه في التقدم إليها.

هوى ساقطاً يتأوه كفأٍ صغير، أجبن
من أن يواجه قطًا شرسًا يعلم كيف
يحمي نفسه ويدافع عنها!

فتحت خزانة الملابس فوجدت ملابس
والدته، اختارت منها سترة فارتدتها
على عجل، وأخذت المفتاح وضعتهُ في
ثقب الباب، وحركتهُ يمينًا ففتح لها.

خرجت وهي تتوعد من ينتظرانها
بالأسفل.

ما أن رآيتها حتى تقدما منها؛ ظنّا
منهما أنها ستخاف وتستسلم لهما
ولرغباتهما الدنيئة.

لكنهما فاجئتهما باللكمات والركلات،
وأسرعت إلى الحديقة ففتحت سيارتها،
وأخرجت مسدس صوتٍ وجهته نحو
السماء، وأطلقت طلقتين في الهواء.

في تلك الأثناء كان منصور يقود السيارة
بخاله اللواء عز الدين الرفاعي، ما أن
سمع طلقات المسدس حتى أسرع إلى
مكان الصوت، وبالفعل أوقف السيارة
أمام مصدر الصوت (القيلا)، وترجلا

منها ليجدا ماري تقف بشموخ ممسكة
بمسدسها.

أسرعا إليها ليطمئنّا عليها، ما أن
رأتهما حتى ارتمت في أحضانها تبكي
بكاء اليتيم!

أجرى اللواء عز الدين اتصالاً هاتفياً
طالباً المدد من قوات الأمن، بينما ماري
تتعلق بذراع منصور ممسكة به بشدة
في ذعر ملحوظ.

فتح لهما عز الدين باب السيارة وأمر
منصور بالعودة إلى البيت، أمّا هو
فسينتظر الدعم من قوات الأمن؛ كي يتم
القبض على أولئك المجرمين.

ركبت ماري السيارة مع منصور وقاد
بها إلى البيت.

أثناء ذلك شعرت بدوارٍ خفيف،
فأغمضت عيناها بيديها وقالت بصوتٍ
واهـن: أشعرُ بالتعب والإجهاد، أسرع
منصور فأنا في حاجةٍ ماسةٍ إلى الراحة.

منصور بعدما قبّل رأسها: سأفعل أُمي.

دقائق معدودات وكانت السيارة تقف في
الحديقة بعدما خرجا منها.

صعدت ماري السلم وتبعها منصور؛
ليتفقد حالها بعدما لاحظ السترة الغريبة
التي ترتديها.

سألها: ما خبر هذه السترة أُمي؟

تلعثمت ماري ولم تستطع الرد.

سألها منصور مرةً أخرى: ما خبر هذه
السترة أُمي؟

أخبرته بالحقيقة وبتفاصيل ما حدث
معها وهي تبكي وتتحب، لكن ذلك لم
يكن ليمنع منصور من الثورة عليها
وفقدان السيطرة على أعصابه.

منصور بعصبية بالغة: قولي لي بربك
ماذا فعلت لك كي تفعل بي ما تفعلينه؟
ألا يكفيك ما سببته لي من إحراج أمام
المجتمع بحملك العجيب هذا؟!

تحمّلين وأنت في أواخر الخمسين من
عمركِ، وتحملين جينات عائلتك التي لا
تكبر أو تشيب، وفوق كل هذا كدت أن
تودي بسمعتنا وشرفنا بسبب تهورك يا
سيدة ماري هانم.

لم تستطع ماري أن تنظر إليه أو
تُقاطعه، اقترب منها والغضب يملكه

وقال بعصبية بالغة: لیتک لم تكوني أمي!
بل لیتتي لم أُخلق منك، لیتک مت قبل هذا
وكنت نسيًا منسيًا!

ما أن استدار بعدما أنهى حديثه، حتى
سقطت ماري على الأرض مغشياً عليها.

حملها ووضعها على فراشها، لكنه شعر
بشيء لزج يلوث يديه.. نظر فإذ بماري
تتلف!

الفصل السابع

بينما كانت أضواء سيارات الشرطة
الزرقاء والحمراء تنعكس على جدران
القيلا، صُفد الشباب الثلاثة واقتيدوا إلى
المركبات بتهمة الخطف والترويع.

وسط تلك الفوضى، كان منصور
يرتجف، ضغط بأصابع مرتعشة على
هاتفه ليتصل بعمته الطيبة صفاء،
وصوته يتقطع وهو يصف لها غياب
ماري عن الوعي والدماغ التي تحيط
بها.

لم تتردد صفاء، بل أجرت اتصالاً فورياً
بمستشفى "مهربان" للأمومة والطفولة
— ذلك الصرح الذي شيّده عبد القوي
خصيصاً لماري في ذكرى مولدها كأثمن

هدية حب يحملها اسمها — ولأنَّ
المشفى لا يبعد كثيرًا عن قِلا عِبد
القوي عيد، فقد جاءت سيارة الإسعاف
المُجهزة بعدَ ربع ساعة وبداخلها إحدى
الطبيبات.

رائحة المعقمات النفاذة، وصوت
الأجهزة المنتظم الذي يكسر صمت
الممر الضيق، كانت المؤشرات الوحيدة
على أنها لا تزال على قيد الحياة.
استقرت في سرير العناية المركزة،
محاطة بأسلاك تقيس نبضات قلبها
المتعبة، وأنبوب محلول يغذي وريدها
الشاحب. كانت في غيبوبة كاملة،
وجهها أبيض كالملائكة الراحلين، لا
تستجيب لأي نداءٍ أو لمسة.

خرجت الطيبة من باب العناية المركزة
ممتعضةً، تخلع كمامتها الطبية وهي
توجه حديثها لمنصور:

الوضع كان حرجًا للغاية.. لقد تعرضت
والدتك لصدمةٍ عصبية وعائية حادة
(Vasovagal Syncope)، تسببت
في هبوط مفاجئ وصاعق في ضغط
الدم، أدى بدوره إلى هذه الغيبوبة.

سألها منصور بصوتٍ تهتكٍ فيه الأمل:
وماذا عن الجنين؟ النزيف كان غزيرًا..
هل فقدناه؟

أجابته وهي تطالع تقرير الأشعة بنبرة
هادئة: معجزة إلهية أن نبضه لا يزال
مستقرًا. النزيف ناتج عن تجمع دموي
تحت غشاء الحمل، تسببت الضغوط

النفسية الحادة في انفجاره، لكنه لحسن
الحظ بعيد عن كيس الحمل وعن
المشيمة. عُق الرحم لا يزال مغلقاً،
وهو ما نسميه طبيّاً (إجهاضاً منذراً).
هي الآن تحت تأثير المثبتات والمحاليل،
وقررنا إبقائها في غيبوبة طبية
مستحثة ليرتاح دماغها تماماً. الساعات
الأربع والعشرون القادمة ستحدد كل
شيء.

غادرتُ الطيبة، فجثى منصور على
رُكبتيه يرتعش. انهمرت دموعه نادماً،
يلوم نفسه على جرحها بكلماتٍ
كالشفرات لم تقوَ القلوب على تحمّلها.
في تلك الأثناء، وصلت الطيبة صفاء
مسرعة إلى رواق العناية المركزة.

هالها منظر منصور الجاثي وعيناه
المحمرتان من فرط البكاء، فاحتوته
بمسحة حانية، تذكره بالله العلي العظيم
وتلح عليه أن يلتجئ بالدعاء لأمه.

وعلى الجانب الآخر من جدار العناية
البارد... وفي عمق غيوبتها المستحثة،
انسلت قيود الواقع المريع من وعي
ماري، ورأت نفسها تجلس في جوف
حديقة غناء، مرتديةً فستاناً يتماهى مع
ظُهر بشرتها البضاء. كانت أناملها
تغزل على اللوحة الأمامية تفاصيل
الطبيعة؛ تسكب ألوانها بجوارها لتثبت
الحياة في شمس دافئة، وسماءٍ رحبة،
ومساحاتٍ ممتدة من الخُصرة اليانعة.

أخذت تتجول في الحديقة بعدما انتهت
من رسمتها، تجري وتمرح كطفلةٍ لم
تبلغ العاشرة بعد!

لفت انتباهها الورد الأحمر الذي يُغطي
نصف مساحة الحديقة، أخذت تتنقل بين
الورود وكأنّها فراشة.

كانت تُغني بصوتها العذب، متذكّرة ما
كانت تنسجه بكلماتها الشاعرة:

يا سامعين صلّوا عالنبي المختار

واسمعوا حكاية تشرح القلب وتحتار

دي ماري فتحت دفترها من جديد

فاكرة إنه مجرد ورق... لكنه كان وعد
أكيد

أول ما قلبت الصفحة... سكت الكلام

ولقت قلبها مكتوب قدامها من غير أحلام
كل كلمة كانت كتبتها في زمان
بقت حقيقة... بفضل الرحمن
عبد القوي بقى هو نفس الحكاية
ونفس البطل اللي كانت بتحلم بيه في
النهاية
قصايد كانت بتستخبي بين السطور
بقت دلوقتي عايشة وسط النور
والدمعة نزلت... لا خوف ولا أنين
دي دمعة فرحة من قلب مستكين
سبحان اللي بيكتب الأقدار بحكمة
وحساب
ويخلي الحلم يوم... يبقى أجمل من
الجواب.

أثناء ذلك شعرت بشيء ينزل منها،
فتوفقت على الفور وقبل أن تتحرك رأيت
فستانها الأبيض وقد تحول ذيله للأحمر
القاني؛ نتيجة لتدفق دماؤها النازفة.

شهقت شهقة أخرجت الطيور من
أعشاشها، ثم سقطت مغشياً عليها وسط
الورود.

تتاهى إلى سمعها عبر ضباب الغيوب
صوتٌ دافئ.. إنه صوت عبد القوي
يناجيها بصدقٍ قائلاً:

يا ماري يا أم الواد منصور

يا ضحكة عمر كان مكسور

اوعي تصدقي إن الوجد

آخر حكايتنا في الدستور

دي الجنة مستنياك هناك

طب وأنا!!

طب مين يعيش من غير نور

ارجعي.. ده حضنك وطن

وصوتك صلاة.. وقلبك حصن و سور

شايقة الشمس اللي فوقك

دي مستتية عينك تدور

والورد مهما دبل يوم

يرجع يعيش بأول مطر ونور

لو نزفك خد من جسمك دم

ما خدش من روحك الحضور

أنت الحديد وقت الشدايد

وأنت الندى وقت الهجير والحرور

أنا مش هسيب إيدك لحظة
حتى لو بينا ألف بحور
هفضل أنادي اسمك كل يوم
لحد ما تفتحي بيان القصور
قومي... ده لسه الضحكة جاية
ولسه في العمر ألف سرور
واللوحة ناقصها لون واحد
لون عينيك... لما ترجع ويرجع النور
ارجعي...
أنا مستنيك.

وعلى الجانب الآخر من غرفة العناية
المركزة، تحولت عيناه البُيَّتان إلى
حمراوين، وظهرت شعيرة بيضاء
بلحيته الخفيفة في ليلة وضحاها من

هول ما حدث لأمه؛ فجثا على ركبتيه
يبكي بجانبها، وقد انحنى طوله الفارع:

يا رب ماليش باب غير بابك

ولا ليا ضر إلا رحابك

أنا غلطت في حق أُمي

وجاي النهارده أطلب عتابك

أنا اللي علّيت صوتي عليها

وكسرت قلبها وأنا كل ما ليها

فكرت نفسي خلاص بقيت كبير

وأنا من غيرها ضايع وصغير

دي قلبي وروحي ونور عنيّا

وكسرت قلبها الغالي بإيديّا

إن كان للكلمة حساب وعذاب

فأنا اللي أستحق العقاب

دي كانت ضهري وسِتري الدائم

مطمئن وأنا في حضنها نايم

أمي يا فرحة وقت الضيق

من غيرك أضل الطريق

يا أمي سامحيني لو تسمعيني

أنا قلبي قبلك مات من أنيني

أنا مش زعلان أبدًا منك..

ولا أقدر يوم أبعد عنك

يا رب قومهالي بالسلامة

ولا تحرمني م الابتسامة

يا رب رجعهالي من تاني

ظلمتك يا أمي وأنا الجاني

يا رب في رحمتك طمعان

قلبي بالأمل عشان

رد لي أمي بصحة وعافية

بقلبها الحنون ونيتها الصافية.

وفجأة، انكسر الصمت الرتيب لغرفة
العناية المركزة؛ فارتفع صوت جهاز
مراقبة النبض بنغمة سريعة متلاحقة،
قبل أن يستقر على إيقاع هادئ ومنظم
يعلن عودة الحياة. بدأت المؤشرات
الحيوية على الشاشة الرقمية تتلون
بالأخضر صعودًا، وفي تلك اللحظة،
ارتعشت جفون ماري ببطء، وتنفست
بعمق كمن يخرج من بئرٍ سحيق، لتفتح
عينها أخيرًا معلنة استرداد وعيها،
وعودتها إلى الدنيا من جديد.

الفصل الثامن

ارتعش جفناها وهي تُردد بصوتٍ واهن:
عبد.. ما تسيبنيش يا عبدہ أرجوك.

ثم فتحت عينيها على مهلٍ، لتُصدم
بوجودها داخل خيمة مظلمة، يجلس
بجوارها رجلٌ غريب؛ هالها سواد
بشرته الشديد الذي يُشبه عتمة الليل
العَبسي. كان فارع الطول، ممتد الهامة،
مستوي الخلقة دون ضخامة مُفرطة،
لكن جسده الممشوق كان ينطق بصلابة
الفرسان. تأملت تفاصيل وجهه بوجل؛
بدءًا من لحيته الكثيفة، مرورًا بشفته
السفلى المشقوقة "الفلحاء" التي ميزت
ملامحه الصارمة، وصولًا إلى عيني

حادتين كعيني صقر يتطاير منهما
الشرر.

شهقت من هول ما رأت وحاولت
النهوض، لكنَّ انخفاض ضغطها حال
دون ذلك. اقترب منها الرجل وبيده قربة
ماء، وقبل أن تفتح فمها بالأسئلة،
بادرته بذعر ولهجة مرتجفة: ماء إيه
وخيمة إيه؟ أنت مين؟ وأنا فين؟ وعبد
فين؟.. إيه اللبس اللي أنت لابسه ده؟!
دي تمثيلية صح؟

لم تتحرك في وجهه الأسود صخرة
واحدة، وضع القربة عند رأسها وقال
بنبرة أجشة قوية جهورية تنم عن هيبة
بالغة: كفي عن الهذيان يا امرأة، كلماتك
غريبة كأثوابك. أنت في حمى بني

عبس، وتحديداً في خباء عنترة بن
شداد.. أحمدني اللات أنني التقطتك من
جوف الصحراء قبل أن ينهشك سبع أو
يسبيك غاز من طيئ.

تجمّدت الدماء في عروقها، ودارت
الخيمة بها، وتراجعت برعب وهي
تلصق ظهرها بأحد أعمدة الخيمة
الخشبية، وهمست بشفاه تكاد لا تبين:
بني عبس؟ عنترة؟! عنترة بن شداد..
العبد الأسود؟.. الفارس المقدام؟.. أنا
أكيد اتجنت.. أنا عايزة أرجع بيتي!

خلاص أنا راضية أكون مراتك يا عبده
وأملك يا منصور، بس رجعوني.. يا
عبده أنت فين وساييني؟

أنا زعلانة منك يا منصور!

لمحت لمحة غضب خاطفة مرت فوق
ملامحه بعد جملتها العفوية (العبد
الأسود)، لكن عزة نفسه وكرم ضيافته
حالا دون بطشه بها. تحرك بخفة مذهلة
ووقف يحجب بظهره الضخم مخرج
الخيمة وضوء الشمس الحارق، ثم
التفت إليها قائلاً بصرامة لا تقبل
النقاش: الخروج الآن يعني الهلاك.
الرمضاء بالخارج تغلي كالمرجل،
وقبيلتي تأهبت لغزو قريب. الزمي
مكانك حتى يقضي الله في أمرك أمراً،
فلست في حالٍ تسمح لك بمواجهة
الصحراء.. ولا بمواجهة رجال عبس إن
ثارت ظنونهم.

ساد صمّتٌ ثَقِيلٌ داخلَ الخبَاءِ، ولم يعد
يُسمع سوى حفيف الرياح الصحراوية
وهي تضرب أوتاد الخيمة في الخارج.

تخلّى عنّرة عن صرامته لثوانٍ، ولأول
مرة، تخلّلت نظرتُه الصارمة التفاتةً
تأملٍ فاحصة، ركز فيها عينه على هذه
الكائنة الغريبة التي قذفت بها رمال
البيداء في طريقه.

هالهُ بياض بشرتها الناصع الذي بدا
كقطعة جُمانٍ أو كقرص الشمس في
وضوح النهار، بياضٌ لم تلفحه شمس
نجد، ولم يعرف قسوة الرمضاء.

تتبع بمقلتيه خطوط وجهها البضاوي
الناعم، الذي يُشبه استدارة القمر في ليل
التمام، وراعاه هدوء ملامحها رغم

ذعرها؛ فأنفها الصغير المستدقّ الدقيق،
يقبع بكبرياء عذب فوق شفّتين يرتجفان
ذهولاً.

لكن ما أسر لبّ الفارس العبسي حقاً،
كانت عيناها النعساوان؛ عيونٌ كحيلّة
بالفطرة، فيها من النعاس والكسل
الساحر ما يجعل أعظم الفرسان يلقون
سيوفهم طوعاً. انسدل حول هذا الوجه
المترف شعرٌ فاحم السواد، طويلٌ
مسترسل، بدا كأنه قطعةٌ من عتمة الليل
التي يتلفع بها عنثرة، يتباين بجرأة
صارخة مع بياض عنقها. وفي منتصف
ذقنها الأبيض الصغير الصقيل، استقرت
شامة فاحمة رقيقة، كأنها قطرة حبرٍ

سقطت من ريشة شاعر على صفحة
بيضاء نقية!

استشعر الفارس مهابة هذا الجمال
العذري غير المألوف في ديار عبس،
فارتخت تقاسيم وجهه الغاضبة قليلاً،
وأشاح بنظره عنها كبرياءً وشهامة،
وهو يهمس بصوتٍ خفيض أجش وكأنه
يحدث نفسه:

ما رأيتُ كالحور في البداء من قبل..
سبحان من صورك من طين النور،
ورمى بك في أرض الرماد!

تلاقى عيناها النعساوان بنظراته
الفاحصة، فدبّ الدفء في عروقها فجأة،
واحمرّت وجنتاها برأى ذلك الفارس
الذي يتأملها كصقرٍ مبهور.

تملكها ارتباكٌ عذب، فعضّت شفتها
السفلى خجلًا في محاولةٍ لمداراة حرجها
وتشتيت نظراته الجريئة عنها.

لم يفت عنّرة رصد تلك الحركة العفوية؛
فتورد وجنتيها زاد بياض وجهها نضارةً
كشقائق النعمان في أول الربيع، وجعل
تلك الشامة الفاحمة في منتصف ذقنها
تبرق كالنجم في غسق الليل. تراجع
خطوة إلى الخلف وكأنه يهرب من
سطوة حياء امرأةٍ عزلاء هزمت هيبتة
الصارمة ببساطة، وتتحنح ليُعيد إلى
صوته وقار الفرسان قائلًا:

الزمي خبائك واطمئني، فما كان لعنّرة
بن شداد أن يروع خفيرةً حطّت برحالها

في جواره، خذي نفسًا وعودي لرُشدك،
وسأمر لك بزادٍ يقيم أودك.

خرج عنبرة من الخيمة تارگًا ماري
تُحدِث نفسها: أحقًا ما ترى عيني؟ أم
أنني قد جنّ جنوني؟!

الفصل التاسع

دلف شيبوب الخيمة وما أن رأتَهُ ماري
حتى صرخت مُستغيثة: إحقني يا
عنترَة!

إحقوني يا ناس.

تعجب شيبوب من منطقها وقال: مالكِ
يا امرأة؟

أراكِ تصرخين وأنا لا أفهمكِ، ما هذا
الهديان؟

هَلّا تحدثتِ معي بأم الضاد لأعي مقصدكِ
وأُبي لكِ طلبكِ؟

التصقت ماري بجدار الخيمة وقالت:
عايزة عنترَة.. قصدي أريدُ عنترَة، أريدُهُ
الآن بحق الإله.

تبسم لها شيبوب وغادر.

خرج من الخيمة ليجد عنصرة وقد استظل
ليصقل نصل سيفه، اقترب منه قائلاً
بلووم: الغادة ذات الأطمار التي بخيمتك
ثريدك على عجل.

عنصرة بعدما نهض من جلسته: هل
روعتها؟

ألم أقل لك ضع القربة وغادر؟

شيبوب بخوفٍ ظاهر: لا لم أروعتها،
أقسم لك.

ما أن دلفت الخيمة ورأيتني حتى شرعت
في الصراخ والعويل.

تتحنح عنصرة ثم دخل فإذ بماري تسرع
إليه قائلة: فيه راجل كان هيسرقني

ويعني في سوق العبيد، هو خاف لما
قلت له عايزة عنتره وهرب.

لم يفهم عنتره منطقها لكنّه لمح الذعر
في ملامحها، اقترب منها وقالت بصوتٍ
خفيضٍ أجش: لا تخافي شيئاً رعبوبة
وأنا عنتره بن شدّاد.

نظرت إليه ماري بتفكر وقالت: أنا
اسمي ماري مش رعبوبة.

هنا ضحك عنتره حتى انكشف بياض
أسنانه، وأضاف: بل أنتِ رعبوبة.

ماري بعدما عضلت أناملها خجلاً: يعني
إيه رعبوبة؟

أجابها عنتره وهو يتفحص قوامها
بعينيه: الرعبوبة هي الفتاة البيضاء

الطرية، الممتلئة التي تهتز من
النعومة.. وهكذا أنتِ خفرة.

عضت ماري شفتها السفلى خجلاً ولم
ترد.

اقترب منها عنترة ممسكاً بقربة الماء،
قربها من فمها وقال: هيا لأسقيكِ
النَّهْل.

استحت ماري فأمرها أن تفتح فيها،
فتحت فيها على مهلٍ ليسقيها عنترة،
وما أن تلاقى أعينهما حتى اختل
توازنها فانسكب الماء بدرعها!

ضحك عنترة حتى بدت نواجذه وتابع:
هيا لنُكمل فالماء بارد يا رعبوبة.

مرت الأيام داخل خباء عنترة، حتى
كادت ماري أن تنسى عبد القوي

ومنصور.. وتناست ذلك الجنين الكامن
في أحشائها، والذي ينمو في صمتٍ
كسرٍ غريب يربطها بعالمها الراحل.

حاولَ عنصرة التقرب إلى ماري (رعبوبة
كما يُسميها)، لكنَّ لهجتها حالت دونَ
ذلك، فقرر أن يُغذي لها حصيلتها
اللغوية ببعض كلماته.

في ليل نجد البارد، تمددت النيران وسط
الخيمة، وجلس عنصرة يصقل نصل سيفه
"الذامي"، بينما كانت ماري تجلس في
المقابل تراقب حركاته بوجل.

تتحنح عنصرة وقال بصوتٍ جهوري
هادئ:

يا رعبوبة، أراك اليوم قاشفة، ما بك؟
هل نبا بك المكان، أم غثت نفسك من
طعام بني عبس؟

نظرت إليه ماري بعدم استيعاب،
ورمشت بعينيهما النعساوين قائلةً بلهجة
حائرة:

يعني إيه قاشفة؟ وإيه غثت نفسي دي؟
عنترة.. أنا بجد مش فاهمة نص كلامك،
صحيح عبد القوي زود لي حصيلتي
اللغوية وكم ان منصور بس حاسه
ذاكرتي زي الصفحة البيضاء!

ابتسم عنترة ابتسامة خفيفة ظهرت
خلف لحيته الكثيفة، وأرخى سيفه قليلاً
وهو ينظر إلى عينيها برقعة لم يعتدها
فرسان عبس، وقال مهدئاً:

رويدك يا حوراء البيداء.. القاشفة هي
من تغيرت حالها من حزن أو تعب.

وغثيان النفس هو ضيقها.

أردت أن أسألك بلين: هل ضاقت بكِ
خيمتي؟

تنهدت ماري بعمق، وعضت شفتها
برقة قائلة:

لا.. الخيمة مريحة، بس أنا خائفة..
خائفة من كل حاجة هنا، الكلمات،
الصحراء، حتى أنت ساعات بتخوفني يا
عنترة.

اقترب منها عنترة قليلاً، وفي عينيه
شعاع دافئ، وقال بلهجةٍ بليغة:

كيف يروعك من جعل سيفه لك حصناً يا
رعبوبة عنتره؟

ولكن أخبريني عن عبد القوي
ومنصور.. من أي قبيلة؟

وما صلة القرابة بينك وبينهما؟

تلعثمت ماري قبل أن تُضيف: هاقولك
خبرهم بس مش دلوقت، ممكن
تساعدني أتعلم لغتك علشان أقدر أتفاهم
معاك.

اقترب منها عنتره أكثر، وفي عينيه رقة
ودفاء، وقال بلينٍ وبلاغة: اسمعي مني
واحفظي.. إذا قلتُ لك إنك (خَفِرة)
فاعلمي أنني أمدح حيائك الذي يأسر
القلوب.

وإذا رأيتني حزينًا فقل لي: ما بك
(مبتئسًا)؟ وإذا اشتد الحر في الظهيرة
فتلك هي (الهاجرة)، والرمال الحارقة
هي (الرمضاء).. أما قلب عنبرة، فهو
(خدين) لك، أي صديق وحميم لا يخذل
دخيله أبدًا.

بمرور الأيام، وبفعل صبر عنبرة وميله
الشديد لها، بدأت ماري تحفظ هذه
الكلمات ويكأنها تعيش في قصيدة
شعرية.

أصبحت تدرك أن صوته (الأجش) هو
صوت الهيبة، وأن سيفه ليس للقتل بل
لرد (العادية) أي العدوان.

الفصل العاشر

لم تدم الطمأنينة طويلاً؛ إذ أخبرها
عنترة بأن الحرب قائمة بينهم وبين
ذبيان وحلفائها.

إنها حرب داحس والغبراء، تلك الحرب
التي كادت أن تُفني قبيلة عبس، لولا
تدخل عنترة وحمايته لأهله وعشيرته
طيلة سنواتها الطويلة.

وقف عنترة وسط الخيمة يتمنطق
بدرعه الحديدي الثقيل، ويثبت مغفره
فوق رأسه، وبدت ملامحه التاريخية
الصارمة كأنها قُدت من صخر جبل ليلي.
كانت ماري تقف خلفه، ينهش الخوف
قلبهَا، وعيناها النعساوان تفيضان
بالدموع.

التفت إليها عنثرة، فرأى وجهها
البيضاوي شاحبًا كالقمر في محاقه، فقال
لها مودعًا بصوتٍ رجولي حازم:

الزمي الخباء يا رعبوبة. هذه حربُ
(عَوان)، والجيش قد تأهبت وطبقت
الآفاق. لا تخرجي مهما سمعتِ من
صليل السيوف أو صياح الفرسان.

أمسكت ماري بطرف درعه الحديدي
بيدين ترتجفان، وهتفت بنبرة مخنوقة
بالدموع وهي تستخدم كلماته التي
علّمها إياها لعلها تلامس قلبه:

عنثرة.. أرجوك! إنها حرب ضروس،
لقد سمعتُ الفرسان يتحدثون عن تجمع
الأعداء عليك بالآلاف. لا تذهب وتتركني
(مبتئسة) في جوف هذه الصحراء..

الرمضاء بالخارج تحرق قلبي خوفاً
عليك، كيف أعيش إن نبا بك الموت؟

تأثر عنترة بكلماتها، ونظر إلى الشامة
الفاحمة الرقيقة في منتصف ذقنها وهي
ترتجف خجلاً وخوفاً، فوضع يده
الضخمة ذات البشرة السوداء الشديدة
فوق كتفها النحيل وقال بنبرة تقطر عزة
وفخراً:

يا ابنة الأكرمين، لولا الحرب ما عُرف
عنترة، ولولا الطعن في الثغور ما كنتُ
حرياً بحمايتك. لئن تجمّع عليّ الأعداء،
فإنّ سيفي (الذامي) كفيلٌ بفلق الهام.
اطمئني، فوالله لا يخلصون إليك وفيّ
عرقٌ ينبض.. استودعتك الإله.

خرج عنبرة بخطوات وئيدة ثابتة وترك
خلفه خيمة تضج بالخوف، بينما كانت
ماري قد اتخذت قرارًا مجنونًا في
عقلها.. لن تتركه يواجه الموت وحده.

الفصل الحادي عشر

استعرت الحربُ بالخارج، وصارت
الرمضاءُ مرجلاً يغلي بالدماء وصيل
السيوف.

المعركة لا تُرى بوضوح؛ والفرسان
يقاتلون وسط غيمة حمراء وكثيفة من
التراب، هكذا كانت شعاب نجد
وصحرائها الوعرة.

لم تحتمل ماري البقاء في الخباء؛ دفعها
الرعب على عنصرة إلى ارتكاب جنونٍ
مطلق.

تسللت إلى خباء المؤن، وسرقت درعاً
خفيفاً، وعمامةً عبسية لثّمت بها وجهها
البيضاوي، وتقلدت سيفاً ثقيلاً كما
علمها عنصرة في ليالي التدريب الخالية.

اندفعت نحو ساحة المعركة، وهالها ما
رأت؛ الغبار يطبق الأفاق، وعنترة في
قلب الدائرة كأنه أسدٌ هصور، وقد تكالب
عليه فرسان "طيئ" من كل حدبٍ
وصوب. اندفعت ماري بذعر، تُحاكي
حركات الفرسان، ورفعت سيفها تحمي
ظهر عنترة وتبعد عنه غائلة الطعنات
الحاقة.

لكن في غمرة الصدام العنيف، ضرب
أحد الفوارس مغرها الخشبي بسيفه،
فسقطت العمامة، وانسدل شعرها الفاحم
السواد على كاهلها كشلال ليل.

تجمّد الفرسان لثوانٍ؛ إذ انقشع الغبار
عن فتاةٍ في غاية الأنوثة والجمال،
بعينين نساوين كحيلتين يُطل منهما

الرعب، وبشرة بيضاء صقيلة تخطف
الأبصار وسط غبار الموت المظلم.

صاح رئيس قبيلة الأعداء بشرر:

يا لثارات طيئ! صيدٌ ثمين في حومة
الوغي.. اسروها ولا تقتلوها، فهذه
حوريةٌ سقطت من السماء لتكون سبيًا
لنا!

صاحت ماري مُناديةً: واعبساها!

تكالب عليها الفرسان، وبسبب ضعف
بنيتهـا مقارنة بعمالقة الجاهلية، وقعت
في الأسر سريعًا وقُيدت بالحبال
والسيوف مصلّية فوق عنقها.

حين رأى عنصرة ماري مأسورة بين يدي
الأعداء، تزلزلت الأرض تحت قدميه.
خفض سيفه "الذامي" لأول مرة في

حياته كبرياءً وشهامة، وتقدم نحو
رئيس القبيلة يحاول فك أسرها بالود
حقناً للدماء:

يا أبا الحارث، خذ ما تشاء من نعم (إبل)
بني عبس، وفك عقال هذه المرأة، فإنها
دخيلتي، وما كان لفرسان العرب أن
يسبوا خفرةً حطت في جوارهم.

ضحك رئيس القبيلة بخبث وقال بنبرة
تقطر لؤماً:

بل هي سبيّنا يا عنتره، وسأخذها لخبائي
لتكون جاريةً لي!

لم يحتمل أبو الفوارس الإهانة، فبرقت
عيناه بالهول، وزار بصوتٍ أجش زلزلت
أصداؤه الأودية:

والله لا تلمس خصلةً من شعرها وفي
عرقٍ ينبض!

وفي لمح البصر، تحول عنترة إلى
إعصارٍ مدمر؛ اندفع بمفرده وسط
معسكر الأعداء بقوة خارقة، يطيح
بالرؤوس ويفلق الهام، حتى وصل إليها
كالقدر المحتوم، وبضفرة سيف واحدة
قطع حبال أسرها وطوقها بذراعاه
ليحميها.

وفي تلك اللحظة الحرجة، لمح رئيس
القبيلة ظهر عنترة مكشوفاً، فاستل
خنجرًا مسمومًا واندفع ليطعنه في ظهره
غدرًا. لمحت ماري البريق القاتل في
عيني الغادر، وبلا تفكير، دفعت عنترة
بكل ما تملك من قوة، وتلقت الطعنة

الغادرة بدلاً منه في كتفها الأبيض
الناعم!

صرخ عنصرة صرخة هزت أركان
البيداء، ودق عنق رئيس القبيلة بضربة
واحدة، ثم انحنى وحمل ماري بين
ذراعيه والدم القاني يتدفق من كتفها،
وارتد بها نحو معسكر عبس وهو يطوي
الأرض طياً.

الفصل الثاني عشر

بينما منصور يذكر ربه بأحد زوايا رواق
العناية المركزة؛ إذ شق سكون
المستشفى صوت هادئ وحازم، انطلق
عبر مكبرات الصوت في المستشفى
بأكمله: "كود أزرق، العناية المركزة،
الغرفة رقم (82)، كود أزرق".

فزع منصور وأسرع إلى غرفة ماري،
لكنَّ الطبيبة صفاء قد منعتهُ وأخذا
يتابعان المشهد من خلف الزجاج العازل.

اندفع طاقم الإنعاش المكون من (طبيب
العناية، طبيبة تخدير، و4 ممرضات)
إلى الغرفة، يدفعون أمامهم عربة
الطوارئ، وهي عربة حمراء مليئة
بالأدوية وجهاز الصدمات.

يقود الفريق طبيب العناية، ويقف في
نهاية السرير يراقب الشاشة ويوجه
الأوامر بصوت عالٍ ومسموع، بينما
باقي الفريق يمارسون عملهم كالتالي:

تقف ممرضة فوق مسند جانبي بجوار
السرير لزيادة الارتفاع، وتضع كفيها
متشابكتين في منتصف عظمة القص.

وتبدأ بالضغط بقوة وبسرعة (100 إلى
120 ضغطة في الدقيقة) بعمق يصل لـ
5 سم.

تقف طبيبة التخدير عند رأس ماري،
تزيل الوسادة وتميل رأسها للخلف.

وتستخدم في البداية قناع مطاطي يغطي
الفم والأنف، تضغط عليه بيدها لضخ
الأكسجين يدويًا.

وبعد ثانيتين، صرخ القائد: أدرينا لين،
أمبول واحد، وريد مباشر الآن.

حقنته الممرضة على الفور في الكانيولا
الموصلة بيد ماري، ثم رفعت يدها
لأعلى لثوانٍ ليسري الدواء سريعًا نحو
القلب.

التفت الطبيب للجهاز وحدد كمية الطاقة
(200 جول) وضغط زر الشحن، فأصدر
الجهاز صوتًا حادًا متصاعدًا يُشبه
الزنين الإلكتروني وهو يشحن الطاقة.

وضعت الممرضة هُلامًا (جيل) طبيًا على
صدر ماري لمنع الحروق، بينما الطبيب

يُمسك "المقابض الحديدية" ويضع
واحدة أعلى يمين الصدر، والأخرى
أسفل الإبط الأيسر.

وصرخ بأعلى صوته محذراً الجميع:
ابتعدوا عن السرير.. الكل يبتعد!

تراجع الطاقم ورفعوا أيديهم في الهواء؛
تلافياً للصعق.

ضغط الطبيب الزر فانتفض جسد ماري
بقوة على السرير، وارتفع ظهرها
للأعلى ثم هبط فجأة بفعل الشحنة
الكهربائية.

بمجرد هبوط الجسد، اندفعت الممرضة
فوراً وعادت للتدليك القلبي بيديها فوق
الصدر لمدة دقيقتين أخريين قبل الفحص
التالي للشاشة.

بعد صدمة وتدلّيك مستمر لدقيقتين،
صرخ طبيب العناية: توقفوا عن التدليك،
دعونا نرى النبض.

حل الصمت لثوانٍ.. وفجأة تغير الخط
المستقيم على الشاشة، وعادت الموجات
الخضراء المتعرجة، وأصدر الجهاز
نغمته الرتيبة المنتظمة: (بيب... بيب...
بيب...). تنفس الجميع الصعداء، ومسح
الأطباء عرقهم.

خر منصور ساجداً شاكرًا ربه على
عودة نبض أمه للحياة مرّة أخرى.

قام إلى عمّته صفاء فربت على كتفها
بحنانٍ وقال: الحمد لله الذي أجاب عبداً
دعاه.

صفاء والدمع يتساقط من عينيها: الحمدُ
لِلَّهِ ولدي، الحمدُ لِلَّهِ.

ماري تُحبّ ربها وتثق بهِ دومًا، ترضى
بقضائه وتقتنع بعبائمه، وتصبر حتى
يتعجب الصبر لصبرها!

قَبْلَ منصور رأسها وتابع: وأنتِ كذلكِ
عمتي، طيبة وحليمة ومُصطبرة.

الفصل الثالث عشر

استلقت ماري داخل الخيمة، ووجهها
شاحبٌ كالموت، وعيناها النعساوان
تكدان تتطفئان. أحضر عنترة حكيم
القبيلة "ابن حذيم" الذي فحص الجرح
وهز رأسه بأسى:

يا عنترة، النزف شديد، وإن لم يجر في
عروقها دمٌ غير دمها قبل غياب
الشمس، فستلحق بالمنايا لا محالة.

انتفضت ماري بوعيهما الضعيف،
وتذكرت بطاقتها الطبية في المستقبل،
فهتفت بنبرة مخنوقة تبكي خجلاً وخوفاً:

عنّرة.. لا! لا تجعل أحداً ينقل لي دمًا..
أنا فصّيلتي (الدم الذهبي Rh-null)..
دمي نادر وملعون.. لو نقلتم لي دم أي
فارس سأموت فوراً.. دمي لا يقبل إلا
نفسه!

نظر الحكيم بعجز وعدم استيعاب
لكلماتها الحديثة (فصيلة، جينات،
ذهبي)، لكن عنّرة اقترب منها، وعيناه
تفيضان بالدموع، وضع يده على الشامة
الفاحمة في ذقنها وقال بصوتٍ يرتجف
لأول مرة:

هدئي من روعكِ يا رعبوبة.. لستِ
وحدكِ من تحملين هذا الدم النادر. قبل
سنوات في أرض الحبشة تحديداً،
جُرحتُ وقال لي حكيمها إن دمي غريبٌ

لا يُشَبِّهه دم العرب ولا العجم، وأنه لا
يقبل دمًا آخر ولا يعطي إلا نفسه.. دمي
هو دمك يا حوراء البداء!

تسمّرت ماري مكانها من الذهول؛ عنترة
الفراس الأسود يحمل نفس أندر فصيلة
دم في العالم!

أمر عنترة الحكيم بالبداء فورًا. أحضر
الحكيم قصبةً جوفاء صقيلة من نبات
الخيرزان، وطهرها بالنار والملح
بالطريقة البدائية للعرب. غرز الحكيم
طرف القصبة في وريد ذراع عنترة
المفتول العضلات، والغرزة الأخرى في
وريد ذراع ماري الناعم.

جلس البطلان متقابلين، يربطهما أنبوب
الخيرزان الصغير. تطلعت ماري بعينيها

النعساوين بذهول وهي ترى الدم
"الذهبي" القاني يتدفق من جسد
الفراس العبسي ليمتزج بعروقها، ليعيد
النض والحياة لجسدها، في مشهد أثبت
أن بينهما رابطاً قديماً جينياً تعدى حدود
الزمان والمكان!

خرج طاقم الإنعاش بعدما أنهوا عملهم
على أكمل وجه، شكرهم منصور وأمر
بمكافأة مالية كبيرة لكلٍ منهم، وانزوى
بطيب العناية جانباً يسأله عن حالة أمه.

الطيب محمد بعدما خلع القناع الطبي
والقفازان: الحمد لله على لطفه ورحمته.

أقسم لك بشمهندس منصور، أنها كانت
ميتة لا محالة لولا أن تداركتها رحمة
الله.

منصور مقبلاً ظاهر يده وباطنها: الحمدُ
لِلَّهِ على منعه وعطائه وسائر نِعَمِهِ
وستره وفضله ورحمته، وجوده وتدبيره
وكرمه وحفظه ورعايته ووهبه.

وماذا عن الجنين؟

الطبيب محمد مبتسماً بعدما ربت على
كتفه بحنان: اطمئن، قد تداركته عناية
الله، لا زال بخيرٍ ونبضه منتظم هو
الآخر.

شكره منصور مرةً أخرى وغادر
المستشفى، ذاهباً إلى الشركة ليمارس
عمله.

وعلى الجانب الآخر.. بعد أن جرى دم
عنترة في عروق ماري، عاد الدفء
يتدفق في وجنتيها، وفتحت عينيها

النساء وان لتجده جالساً عند رأسها،
واضعاً سيفه جانباً، يتأملها بنظرةٍ انقشع
عنها غبار الحرب تماماً، وحلّ مكانها
خشوع العاشق المبهور بتضحيتها.

لم يستطع الفارس كتمان ما يجيش به
صدره، فاعتدل في جلسته، ولاتت نبذة
صوته الأجلش لتتحول إلى معزوفة
شعرية عذبة. تنفس بعمق، ونظر إلى
الشامة الفاحمة المستقرة في منتصف
ذقنها الصغير، وارتجل لها أبياتاً تخطط
بين سواد ليله وبياض فجرها.

يَا مَنْ إِذَا ابْتَسَمْتَ أَضَاءَ الْمَكَانُ لَهَا ..
وَكَانَ فِي ثَغْرِهَا لِلْفَجْرِ عُنْوَانَا
وَفِي الْعُيُونِ صَفَاءُ النَّهْرِ إِنْ هَدَأَتْ ..
وَفِي الْمَلَامِحِ مَا يَشْفِي بِهِ الْوَجْدَانَا

تَمْشِينَ فَيَتَبَاهَى الْوَرْدُ مِنْ خَجَلٍ ..
وَيَسْتَعِيرُ مِنَ الْخُطُوتِ الْحَانَا

مَا زَادَ حُسْنُكَ زَيْنًا أَوْ حُلِيًّا .. بَلْ زَادَتْكَ
أَخْلَاقُكَ الْغَرَاءُ إِحْسَانَا

إِنَّ الْجَمَالَ إِذَا لَمْ يَسْكُنِ الْأَدَبَ .. غَدَا
سَرَابًا وَمَا أَبْقَى وَلَا صَانَا

أَمَّا أَنْتِ فَفِي عَيْنَيْكَ أُغْنِيَةٌ .. تُخَيِّ
الْقُلُوبَ وَتُنْسِينَا الْأَحْزَانَا

وَلَسْتُ أَصِفُ وَجْهًا قَدْ رَأَيْتُ بِهِ .. حُسْنًا
وَحَسْبُ... وَلَكِنْ أَصِفُ إِنْسَانَا

إِنْ مَرَّ ذِكْرُكَ فِي قَلْبِي تَبَسَّمتُ ..
رُوحِي... وَقَالَتْ: هُنَا قَدْ سَكَنَ الْأَمَانُ.

سكت عنترة، وظلت أصداء كلماته تتردد
في أركان الخباء المظلم. كانت ماري

تستمع إليه بذهول، وعينها تفيضان
بدموع التأثر؛ فقد فهمت كل كلمة قالها
بفضل "القاموس الجاهلي" الذي لقتها
إياه طيلة الأيام الماضية.

تأملت وجهه الأسود الشديد السواد،
وشفته الفلحاء التي كانت تتحرك ببيانٍ
ساحر، واستشعرت لأول مرة عظمة أن
يرتجل فارس العرب الأول شعراً خاصاً
بها، ليس لعبلة، بل لها هي؛ لماري
الفتاة القادمة من عالم آخر لتسكن
شرايينه.

عضت شفتها خجلاً كعادتها، وحاولت
الابتسام رغم ألم كتفها المضمد،
وهمست بصوتٍ واهن:

عنّرة.. دمي بقا من دمك فعلاً.. وشعرك
دا أحلى حاجة سمعتها في حياتي.

ابتسم عنّرة، وظهرت في عينيّه
الحادتين لمعة حنان بالغة، وقال وهو
يغطي يدها الصغيرة بيده الضخمة:

بل أنتِ الحياةُ التي رُدّت لعنّرة يا ابنة
الأكرمين.

الفصل الرابع عشر

مرت الأيام بخيمة عنجرة كمرور الماء
بين أصابع الرضيع، ألفت ماري الرقيقة
قسوة البيداء وصخب الحروب، بينما
تنازل عنجرة عن قلبه العصي لها.

وفاتها في أمر زواجهما بعدما تيقن
من عشقها واثقا من قبولها.. إلا أن وقع
ردها كان غير متوقعٍ بالمرّة لفارسٍ لم
يعتد الانكسار.

فكر عنجرة كيف يُدخل السرور على قلب
ماري، ويكافئها على تضحيتها لأجله،
فكانت الهدية القيّمة التي تلاها عرض
الزواج.

تتحنح قبل الدخول، أذنت له ماري
فدلف.

ما أن رآته يدلف حتى هبت واقفة،
وقالت بعفويتها المعهودة: طاب نهارك
يا عنتره.

فابتسم وعيناه تتأملان حياءها، وقال
بلهجة البادية الجزلة: عمي صباحا يا
رعوبة، بل حياك الله وبياك في خيمتك.

ثم أشار إلى جارية كانت تتبعه تحمل
جفنة (قصعة كبيرة) تفوح منها رائحة
نفاذة، وتابع: لقد أمرت لك بالحيس
الطري، وفيه أفضل سمن من إبل بني
عبس، لعله ينسيك جفاء هذه البيداء.

نظرت ماري إلى الطعام الغريب عليها
بشيءٍ من الوجل، لكن كرم الفارس
الذي يقطر من عينيه جعلها تبتسم.

أخذت الجفنة ووضعتها جانبًا، وقالت
بدلعٍ لم يعهده أبو الفوارس من قبل:
أشتم رائحة المسك، واقتربت منه
وتابعت: أوتحملُ لي هدية عنصرة؟

ابتسم عنصرة وقال: هو ذاك، علّها
تُعجبك.

وضع اللقافة بين يديها بكبرياء فارسٍ
يقدم أثمن غنائمه، ثم قال بنبرةٍ دافئة
وعميقة:

خذي يا رعبوبة.. هذا حريزٌ صنع
لملكات الشام، جلبته لك التجارة من
أطراف الغساسنة.

فتحت ماري اللفافة بلامح متسائلة،
فانساب الحريـر الأسود الصقيل بين
أصابعها كالماء.

رفعت عينيها إليه قائلة بدهشة: خمارٌ
ونقـاب؟ أتريد أن تحجب وجهي عن
الشمس يا عنـترة؟

ابتسم عنـترة ابتسامةً حملت كل فخر بني
عبس، واقترب خطوة، ثم قال وعيناه
تأملان وجهها الرقيق:

بل أريد أن أحجبكِ عن عيون العربِ
إجلالاً.

في صحرائنا يا ماري، تمرُّ الأمّةُ
والجارية حاسرة الرأس، يُجرّمُ عليها
غطاء وجهها، وتُجلد إن تطاولت لتتشبه
بالسيدات.. أما خمار الحريـر هذا، فلا

تضعه إلا الماجدة الشريفة، الحرّة التي
تخضع لها الرقاب.

صمت قليلاً، ثم تابع بصوتٍ انخفضت
نبرته لتلامس شغاف قلبها:

أنتِ في خيمة عنصرة لستِ عابرة سبيل،
ولستِ جاريةً يُباع ويُشترى وُدّها.

أهديتكِ الخمار لتعلم البيداء بأسرها، من
أقصى نجدٍ إلى تهامة، أنّ رعبوبة سيّدة
حرّة، مكانها هامة القبيلة، وحماها سيف
ابن شداد.

لمست ماري الحرير الفاخر، وشعرت
لأول مرة بالوزن الحقيقي للكلمات في
هذه الصحراء القاسية.

لم يكن الخمار قيّدًا، بل كان تاجًا من
الكرامة يوجّهه إليها رجلٌ يرى شرفها
من شرفه.

الفصل الخامس عشر

تساقطت عبرات ماري وهي تتحسس
هدية عنبرة لها، رآها كذلك فاقترب
منها، وقال بصوتٍ حانٍ غير معهود
لفارس بني عبس الأول: ما بك يا
رعوبة؟

جُعلتُ فداك!

رفعت رأسها نحوه وقد بلل الدمع
وجنتيها، وقالت: ليتني وُضعتُ في
زمانك هذا عنبرة!

اقترب منها عنثرة أكثر، مسح دمعها بيدٍ
حانية وقال: أنتِ زمانِي يا رعبوبة،
حياتي قبلِك هباء وبعْدِك هناء، لا تُراعي
أَنْتِ فِي حِمَايَ وَذِمَّتِي.

ابتسمت ماري فابتسم لها عنثرة
وأضاف: الآن أشرقَت الشمس من ثَغْرِكِ
يا ابنة الأكرمين.

حاولت ماري ارتداء الخمار والنقاب
لكنها لم تُوفق، فطلبت من عنثرة أن
يُعِينَهَا، قَابلَ طلبَهَا بِرَحَابَةٍ صدرٍ وشرعَ
فِي تَعْلِيمِهَا.

أَمْسَكَ الخمار واقترب منها، وألبسها إِيَّاهُ
عَلَى مَهْلٍ، ثُمَّ أدْنَى الحجاب عَلَى مَحْيَاها
وتابع بصوتٍ حَانٍ مؤثِر: حَفَظَتِ لِي مِنْ
كُلِّ شَرٍّ يَا رَعْبُوبَةُ.

كنتِ جميلةً والآن أصبحتِ أجمل، ما
زادكِ الخمار إلا جمالاً وما زادكِ النقاب
إلا مهابة. هكذا تُميز العرب بين الحرائر
والإماء.. إن رآكِ أحد بعد الآن سيَعلم
أنكِ ماجةٌ حُرّة، لا أمةٌ يُسامُ في أسواق
العرب وُدّها.

رفعت ماري نقابها وابتسمت فأضاء
مُحيّاها، دقق عنترة النظر في ملامحها
وقال بصوتٍ شجي: أَشْرَقَ مُحْيَاكِ كَأَنَّهُ
بَذَرَ التَّمِّ! وَرَبَّ الكَعْبَةِ أَبْصَرْتُ فِيكِ العِفَّةَ
جَمَالًا، لَتَقَرَّ عَيْنُكِ يَا رَعْبُوبَةَ.

عضت ماري شفتها السفلى خَجَلًا،
وقامت إلى الجفنة فوضعتها بين يدي
عنترة، وقالت بدلالٍ بعدما جلست: هَلَّا
شاركنتي تناول الطعام يا أبا الفوارس؟

تبسم لها عنتره ومد يده الضخمة وقال:
افتحي فاكِ، لأُطعمَنَّكِ بيدي يا رعبوبة.

احمّرت وجنتاهما خجّلا وفتحت فاهما على
مَهْلٍ، ليُطعماها الحيس.

ما أنْ تذوقت ماري الحيس حتى اتسعتْ
عيناها وزاد بريقهما، نظرت لعنتره
وقالت بدهشة مصحوبة بدلال: ما هذه
اللذّاة الطاغية؟! أهكذا طعامكم؟

عنتره متسائلاً بوقار البادية: ما اللذّاة؟
أتقصدين طيبَ المذاق؟

ماري بضحك طفولي: نعم، أعني ما هذا
الجمال؟ ما هذه اللذّة؟ طعامكم لذيّذ
للغاية يا عنتره.

ابتسم لها عنتره وقال وهو يُطعماها لقمة
أخرى: هنيئاً مريئاً يا رعبوبة.

ابتلعت ماري ما في جوفها وبدت عليها
السعادة، ثم نظرت إليه بخبثٍ طريف
وقالت: عنصرة.. أريد أن أعلمك لغة
عصري وزماني.. وددتُ لو لقتُك
قاموس بيئي اللغوي.. ما رأيك؟

ابتسم عنصرة وقال: بكل سرور يا
رعبوبة، ولكن ليس الآن فلديّ ما أقوله
لكِ.

ماري متسائلة: خيرًا يا عنصرة؟

عنصرة وقد انتهى من إطعامها: ليس قبل
أن تتذوقي من مخضِ إبلنا في هذا
العِساس.

تساءلت ماري بدلال طفولي: وما هو
المحض؟

عنترة مبتسمًا: هو لبن طازج خالص لا
يُخالطه ماء، ولا نُقدمه سوى لأعزائنا،
ولا أعزّ عليّ منك يا رعبوبة.

قربت ماري فأها من العساس وارتشفت
منه جرعة، ولكن سرعان ما بصقتها
ونفضت وقد أمسكت معدتها، وهي
تأوه من الشعور بالغثيان.

ساندها عنترة بقلق وقال: لعلّك تبغين
مريسًا حلوا يُنعش فؤادك؟

تساءلت وهي تقاوم الغثيان: وما
المريس؟

عنترة بصوتٍ هادئ: تمرّ ننقعه في
الماء البارد، ثمّ نمرسه باليد حتى تذوب
حلاوته، فيصبح شرابًا حلو المذاق.

ماري بلهفة: أبغي مريسًا يا عنترة.

ساعدها عنثرة حتى استلقت في
فراشها، وذهب ليُحضر لها المريس.

أثناء ذلك شعرت بشيء غريب لا تعي
كنهه، اعتدلت في جلستها تتحسس
أسفل بطنها، وبعد برهة فتحت فاهها في
ذهول ودهشة؛ إذ شعرت بأول تحرُّك
لجنينها الكامن بين أحشائها!

تذكرت عبيد القوي ومنصور وحملها،
تذكرت زمانها الذي فُرض عليها،
وقدرها الذي قُدِّر لها أن تعيشه.

تذكرت تلك الليلة الهائلة وجدتها
والأمنية.. تذكرت ماري، لا رعبوبة.

تساقط الأجاج من عينيها النعساوين،
دلف عنثرة فرحاً يحمل عساس
المريس، ما أن رآها هكذا حتى وضعه

جانبًا واقترب منها بقلق: ماذا هناك يا
رعبوبة؟

نظرت إليه ودمعها يهطل كالهتان دون
حديث.

أعاد عليها السؤال: ماذا حدث؟ كيف
تجدينك يا رعبوبة؟

مسحت ماري دمعها وابتسمت قبل أن
تضيف بصوتٍ حانٍ: أنا بخير يا عنصرة،
صدّقتي.. أعطني المريس.

لم يعطها إياه وقال: ليسَ قبلَ أن
تخبريني ماذا حدث؟

ماري وقد اقتربت منه حتى كادت
تلتصق به: أنا بخير حقًا، لا تبتئس.

قدم لها المريس فتجرعته ثم قالت بدلال
يخفي غصة: أنا أحبُّ المريس، لتَسْقِينِيهِ
دومًا يا عنّرة.

عنّرة ضاحكًا بزهو: سأفعل وأنا
فارسك.

جلسا يتحدثان، فاستجمع عنّرة أنفثه
وقال بنبرة هزت أركان الخيمة: يا
رعوبة.. نظرتُ إليك فما رأيتُ لبيّتي
ربةً سواكِ، فهل يطيبُ لقلبكِ أن يحلَّ في
حِمي عنّرة؟

الفصل السادس عشر

نظرت إليه ماري في دهشة وعدم
استيعاب، وقد تساقطت عبراتها مرة
أخرى، وتسارعت ضربات قلبها فظهر
ذلك جلياً في تهدج أنفاسها.

قدم لها عنبرة قدحاً من الماء، وتريث
حتى تجرعه، ثم قال بصوت حازم هذه
المرة: مَا سَبَبُ هَذَا الدَّمْع؟ أَمِنْ خَجَلٍ أَمْ
مِنْ جَزَعٍ؟

استجمعت ماري رباط جأشها وقالت
بصوتٍ تملأه الغصة: ليس هذا ولا ذاك.

نظر إليها عنترة بعمق وأضاف: إذن
ماذا يا رَعْبُوبَة؟

لم تستطع ماري الإجابة، فبكت حتى ابتل
خمارها. تأمل عنترة ملامحها مليًا، ثم
قال بأنفة وكبرياء: لَا عَلَيْكَ يَا رَعْبُوبَة،
على كُلِّ أَنْتِ فِي حِمَايَ وَذِمَّتِي حَتَّى يَأْتِيَ
بَعُوكَ لِيَأْخُذَكَ.

أنهى حديثه وانصرف مسرعًا خارج
الخيمة.

بكت ماري وانتحبت، واعتصر قلبها
لحزن عنترة، لكنها لم تقوَ على الخروج
وراءه؛ إذ حلت الهاجرة الشديدة، فتمنت
لو لم تخلق من الأساس!

ولأن حزنًا واحدًا لا يكفي؛ تذكرت حين
جرحها منصور، ذلك الابن الذي رزقته

عن طريق أمنية، تذكرته وهو يوبخها
ويلقي باللوم عليها، فهطل الأجاج من
عينها النعساوين كنهٍ جارٍ!

وعلى الجانب الآخر.. جلس عنترة
يحدث فرسه الأجر، ويشكو له ما أثقل
قلبه:

قد شجوت قلبي يا رعبوبة، وأنا الذي
وِدْتُ لو فرشتُ لك شغاف قلبي وجعلته
لك بساطاً! أصاب سهمها شغاف قلبي يا
أبجر، قد حلت وحل معها شغفي
المفقود، وروحي المحبوسة منذ زواج
عيلة ابنة مالك.

وكان الإله أرسلها لي لتكون عوضي
عما لاقيت من ظلم وأسى! لو سألتني يا
أبجر لماذا هي؟

لَأَجِبْتُكَ لِأَنَّهَا وَحِيدَةٌ، قِطْعَةٌ فَرِيدَةٌ جَادَ
الِإِلَهُ بِهَا عَلَى هَذِهِ الْبَسِيطَةِ فَخَلَقَهَا مِنْ
تُرَابِ النُّورِ، وَرَمَى بِهَا فِي هَذِهِ الْبَيْدَاءِ.

لِمَاذَا هِيَ؟

لِأَنَّهَا تَمْتَلِكُ رُوحًا شَفَافَةً وَقَلْبًا نَقِيًّا،
وَنَفْسًا مَرِحَةً وَعَقْلًا حَكِيمًا.

لِمَاذَا هِيَ؟

لِأَنَّهَا فَتَاةٌ غَرِيبَةٌ عَنْ عَالَمِ الدُّنْيَا، أَظُنُّهَا
هَارِبَةً مِنْ عَالَمِ الْجَنِّيَّاتِ الْحَسَّانِ!

لِمَاذَا هِيَ؟

لَوْ أَجَبْتُكَ لَكَذَبْتُ عَلَيْكَ يَا أَبْجَرُ؛ فَهِيَ لَا
يُخْفِيهَا الْوَصْفُ وَلَا يَصِفُهَا شِعْرٌ، لَيْتَهَا
أَتَتْنِي قَبْلَ كِتَابَةِ مُعَلَّقَتِي، وَرَبِّ الْكَعْبَةِ
لَجَعَلْتُهَا مَحُورًا لِمُعَلَّقَتِي!

نهضت ماري من فراشها وكفكت دمعها
بعدما قررت أن تخبر عنترة بحقيقتها،
عزمت على إخباره بما حدث لها من
الأمنية وسقوط الرمش الأول وعبد
القوي ومنصور وكذا حملها، بل عزمت
على أن تطلعه على عصرها إن هو
رغب في ذلك، لكن سرعان ما دهاها
دوار شديد أسقطها على الفراش مغشياً
عليها.

بينما كان عنترة يحدث فرسه، أتته
الجارية التي ابتاعها لتقوم على خدمة
ماري، وأخبرته بما حدث لها من إغماء.

هرب مسرعاً لنجدتها، خلع درعه ووضع
سيفه جانباً، ودلف عليها ليجدها طريحة
الفراش لا تستجيب لمحاولاته.

أرسل في طلب القابلة مروة لتفحصها،
فجاءت وفحصتها، ثم ألقّت خبرها
الصادم: قد فحصتها وتبين لي أنها حبلى
في شهرها الخامس!

اتسعت حدقتا عنترة عن آخرهما ذهولاً،
وأسرع إلى سيفه فحمّله واقترب منها.
فتحت عينيها على مهل فوجدت عنترة
جاثماً فوق رأسها متقلداً سيفه، فزعت
وحاولت النهوض لكنه منعها وقال
بصوت أجش صارم: مَنْ الَّذِي أَرْسَلَكَ
لِتَفْتِنِي؟ أَمِنْ طَيِّبٍ أَمْ مِنْ ذُبْيَانٍ؟ هَيَّا
تَحَدِّثِي! أَتَفْعَلِينَ بِأَبِي الْفَوَارِسِ مَا فَعَلْتِهِ
بِي يَا امْرَأَةً؟

أَيْنَ بَعْلِكَ وَأَبُو حَمْلِكَ؟ أَمْ أَنْتِ قَدْ...

وقبل أن يكمل، وضعت ماري يدها
الناعمة الصغيرة على فيه، وقالت: بحق
ما لي عليك من خاطر، لا تجرحني،
اقتلني بسيفك ولا تذبح قلبي بلسانك،
وبكت.

رق لبكائها عنثرة فوضع سيفه جانبًا
وقال: إِنْ مَا الْخَبَرُ؟ كَيْفَ تَتْرُكِينَ بَعْلَكَ
وَتَأْتِينَ إِلَيَّ؟ أَمْ أَنَّهُ هُوَ مَنْ أَرْسَلَكَ فِي
طَلَبِ الْإِسْتِبْضَاعِ؟ أَنَا لَا أُعْطِي نُطْفَتِي
لِأَحَدٍ، أَنَا الْأَسَدُ الْهَاصُورُ عَنْتَرَةُ بْنُ شَدَّادٍ
الْعَبْسِيُّ لَا أَجَامِلُ بِمَائِي الشَّرِيفَ،
فَلْتَذْهَبِي لِعَيَّارِي وَغَيْرِي كَثِيرٍ، وَكُلُّهُمْ
سَيَفْرَحُونَ بِنُزُولِكَ عِنْدَهُمْ!

أخذت ماري تبكي دون رد حتى كادت
أنفاسها تنقطع، تجرعت الماء ثم قالت:

سامحني يا عنبرة، قد التبس عليك الأمر
لعدم إخباري لك بحقيقتي منذ قدومي
إليك.

أنا امرأة تائهة، جئتك من زمنٍ لاحق،
غريب الأهل والعرف، زمن فرض عليّ
وقدر لي أن أعيشه.

كنت زوجةً لرجلٍ جليل، شريف، شهم
نبيل يدعى عبد القوي، كان سيدًا في
قومه، صادقًا في مشاعره، أحبني كثيرًا
جداً وأنجب مني منصورًا، ورحل بعد
حملي هذا بشهرين؛ إثر حادث كنا فيه
سويًا لكنني نجوت ومات هو.

صدمت لفقده وتعبت نفسي، حاولت
الهرب من تلك الحالة لكنني كدت أن أقع

في داهيةٍ كبرى، لولا أن تداركتني رحمة
الله.

بعدها وبخني ابني منصور وجرحني
بسيف لسانه، فبكيت ونزفت وأقمت
بالمستشفى.. بعدها لا أدري ماذا حدث؟

كل ما أذكره أنني فتحت عيني فوجدتني
في خيمتك، هذا كل ما في الأمر ورب
الكعبة لم أكذب عليك في حرف.

أشاح عنتره بوجهه عنها، ثم عاد لينظر
إليها بعجب وقال: أَوْعَبَرْتَ الْفَجْوَةَ؟

تساءلت ماري: عن أي فجوة تتحدث؟

فقال عنتره بانبهار: عَنْ فَجْوَةِ الزَّمَانِ..
قَدْ أَرْسَلَكِ الْإِلَهَ لِي، فَأَهْلًا بِكِ يَا رَعْبُوبَةً!

الفصل السابع عشر

انتفضت ماري دهشةً من رد فعل عنبرة،
وقالت بصوتٍ شابهُ التردد: أنت بخير يا
عنبرة؟

ضحك عنبرة حتى بدت نواجذه، وقال
بنبرةٍ ودودة: نعم، بخير يا رعبوبة، قد
فُضِّلْتُ على سائر العرب بوفودك إليّ،
فهنيئاً لي بهذا التفضيل!

ابتسمت ماري وأردفت: شكراً لك يا
عنبرة على هذا الإطراء.

قام عنبرة إلى عُسٍّ فيه مريس وقدمه
إليها قائلاً: هنيئاً مريئاً يا رعبوبة.

تناولته ماري وتجرّعته، ثم وضعته
جانبًا وقالت بضحكة طفولية: نِعْمَ
الشّرابُ المريس! لا المَحْضُ الذي جلب
لي الغثيان والقيء.

تبسم لها عنّرة وقال: ذاك لأنكِ حُبلى يا
امرأة، وأظنكِ تتوحمين.

عضّت ماري شفّتها السُّفلى خجلًا،
وقالت بصوتٍ حيّ: هو ذاك.

دنا منها عنّرة وقال: لِمَ لَمْ تردّي على
مطلبي؟

تساءلت ماري: أيُّ مطلبٍ يا عنّرة؟

فقال بصوتٍ شجيّ: رغبتى فى اتخاذكِ
زوجةً لى.

شهقت ماري وقامت من مجلسها بغتة،
فتبعها عنبرة مندهشًا من فزعتها، وسأل
في حزم وفروسية: إن رغبت بي
فسأكون درعك وحمايتك، وإن أبيت
فستظلين في نمتي وجواري إلى أن
تضعي وليدك.

نظرت إليه بتوجس وقالت: ليس الأمر
كما تظن يا عنبرة.

عنبرة مستفهمًا: إذن ما الخطب يا
رعبوبة؟

قالت ماري وقد تفرقت دموعها: هذا
الأمر سابق لأوانه؛ فأنا لا أزال في
عدتي.

عقد عنترة حاجبيه بتعجب: أيُّ عُدَةٍ يا
رعوبية؟! ألم يهلك بعلك عبد القوي أبو
منصور؟

أجابت بصوتٍ مخنوق بالدموع: بلى، قد
مات.. ولكنني لا زلتُ في عِدَةِ الترميل
من بعده.

قال عنترة وهو يتعمق في ملامحها
مستغرباً منظرها: يا رعوبية، إنَّ العرب
يحلُّ لها خطبة المرأة ونكاحها ما دام
بعلها قد هلك وإن كانت حُبلى، لا نُكر في
ذلك ولا عيب!

ابتسمت ماري بأسى وقالت: حسنًا يا
عنترة، ولكن تريث عليّ ولا تتعجل
الأمر، ناشدتك بمالي في قلبك من
حظوةٍ وخاطر.

تبسم لها وقال بصوتٍ حانٍ: لكِ ما شئتِ
من الأناة يا رعبوبة.

مرت الأيام داخل خباء عنترة كأجمل ما
يكون، وكانت ماري تُمارس شعائرها
الدينية خلصةً؛ من صلاةٍ، وذكرٍ، وصيامٍ
تطوع، حتى اصطدمت بعنترة ذات فجرٍ
وهي تُتاجي ربها.

الفصل الثامن عشر

لم تكن تلك الليلة كغيرها من الليالي في
خباء عنتره بن شداد.

كان السكون يلف الوادي، والظلام يرخي
سدوله الثقيلة، حين انسَلَّت ماري من
فراشها بخفة، متجهة إلى زاوية الخباء
المعتمة.

وقفت مستقبلة القبلة، ورفعت يديها
بتضرع، ثم شرعت في صلاتها وذكرها،
غافلة تمامًا عن العينين الحادتين اللتين
كانتا ترقبانها من وسط العتمة.

كان عنتره مستلقيًا في النصف الآخر
من الخباء، لكنه لم يكن نائمًا.

لأسابيع طويلة، ظل يراقب حركاتها عند
كل فجر؛ يرى انحناءها وسجودها،
ويسمع همساتها الخافتة التي تخرج من
أعماق قلبها بنبرة لم يعهدها في طقوس
العرب ولا في ترانيم النصارى أو
صلوات اليهود. كانت مناجاة من نوع
آخر، تسلب لبه كلما استمع إليها خفية.
والآن، دنت ساعة المواجهة.

مع آخر سجدة لها، تنفست ماري
الصعداء وهَمَّت بالقيام، لتفاجأ بظل
طويل يقف خلفها مباشرة.

شهقت من الفزع، وارتدت خطوة إلى
الوراء وهي تضع يدها على صدرها
المتسارع النبض.

تتحنح عنثرة، وقال بصوتٍ جهوري
لكنه هادئ، يملؤه الفضول:

لا تَفْزَعِي يَا رَعْبُوبَةَ.. إِنَّهُ أَنَا.

لَسْتُ وَحْدَكَ فِي هَذَا الْخَبَاءِ، وَلَسْتُ غَافِلًا
عَمَّا تَصْنَعِينَ مُنْذُ لَيَالٍ.

بلعت ماري ريقها بصعوبة، وحاولت
جاهدة إخفاء ارتعاش يديها، وقالت
بصوتٍ متهدج:

عنثرة!.. أكنت مستيقظًا؟

خطا عنثرة نحوها بخطوات بطيئة،
وعيناه تتفحصان ملامحها في ضوء
الفجر الخافت، وقال:

وَكَيْفَ يَنَامُ مَنْ يَرَى ضَيْقَتَهُ تَأْتِي بِأَفْعَالٍ
لَمْ تَرَهَا عُيُونُ الْعَرَبِ مِنْ قَبْلُ؟ تَفْعَلِينَ

هَذَا خِلْسَةٌ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، كَمَنْ يُخْفِي
كَنْزًا أَوْ يَخْشَى عِقَابًا. أَيُّ طَقْسٍ هَذَا
الَّذِي تُقِيمِينَهُ يَا امْرَأَةً؟ وَلِمَنْ هَذِهِ
السَّجَدَاتُ الَّتِي تُعْفَرِينَ بِهَا جَبِينِكَ فِي
التَّرَابِ؟ الْأَصْنَامُ مَكَّةٌ، أَمْ لِلَّهِ عَبَسَ، أَمْ
لِشَيْءٍ آخَرَ لَا عِلْمَ لِي بِهِ؟

صمتت ماري لحظة، ونظرت إلى الأرض
وهي تجمع شتات شجاعتها.

علمت أن وقت الكتمان قد انتهى، وأن
هذا الفارس الذي حماها يستحق
الصدق.

رفعت رأسها، ونظرت في عينيه بثبات
مشوب بالسكينة، وقالت:

بل لرب السماوات والأرض يا عترة..
لرب لا شريك له، لا تصنعه الأيدي من

حجارة، ولا يطعم ولا يشرب، بل هو
الذي يطعمنا ويسقينا ويحيينا ويميتنا.

أنا على دين الإسلام يا عنصرة.. أنا
مسلمة.

ارتد عنصرة خطوة إلى الوراء، وعقد
حاجبيه بذهول، وكرر الكلمة كأنه يتذوق
حروفاً جديدة على لسانه:

الإِسْلَامُ؟! .. مَا الإِسْلَامُ؟ أَهْوَ دِينُ
الْحُنَفَاءِ؟ أَمْ دِينُ مُلُوكِ غَسَّانَ وَالْيَمَنِ؟

اقتربت ماري منه قليلاً، وجلست على
حاشية الفراش، وأشارت إليه بوفاق أن
يجلس، فجلس أمامها بضخامته وهيئته
مستمعاً بكامل حواسه.

بدأت تتحدث بنبرة هادئة، دافئة، تسكن
القلوب:

الإسلام يا عنصرة هو الاستسلام لله
الواحد الأحد. الاستسلام التام والانقياد
المطلق لله سبحانه وتعالى، وهو الدين
الذي بعث الله به جميع الأنبياء
 والمرسلين، وخُتم بالشرعة التي نزل
بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم،
 لتكون منهاجًا شاملاً للحياة وتوجيهًا
 للبشرية كافة.

دين جاء به نبي في مكة يُدعى محمدًا،
 يدعو الناس أن يتركوا عبادة الحجارة
 التي لا تنفع ولا تضر، وأن يعبدوا رب
 العباد. دين لا يفرق بين سيد وعبد، ولا
 بين أبيض وأسود، فالناس فيه سواسية
 كأسنان المشط، لا فضل لأحد على آخر
 إلا بالتقوى والعمل الصالح.

لمعت عينا عنصرة عند سماع كلمات "لا
يفرق بين سيد وعبد". هو الذي ذاق
مرارة العبودية وعانى من جفاء والده
وقبيلته بسبب لونه وأصله. تحرك شيء
في صدره، وقال بنبرة شجية مال فخرها
إلى اللين:

سَوَاسِيَّةٌ؟! .. أَحَقَّ يَقُولُ دِينُكُمْ هَذَا؟ إِنَّ
الْعَرَبَ تُعْظِمُ الْأَنْسَابَ، وَتُقَدِّمُ ابْنَ
الصَّرِيحَةِ عَلَى ابْنِ الْأَمَةِ، وَتَجْعَلُ السِّيَادَةَ
لِلْوَجْهَاءِ وَأَصْحَابِ الْمَالِ! كَيْفَ لِرَبِّ أَنْ
يُسَوِّيَ بَيْنَ سَيِّدٍ عَبَسَ وَفَارِسِهَا، وَبَيْنَ
عَبْدٍ يَرْعَى الْإِبِلَ؟

ابتسمت ماري برقعة وقالت:

لأن الله هو الذي خلق الجميع من تراب
يا عنصرة. هو لا ينظر إلى صوركم

وأموالكم وأنسابكم، بل ينظر إلى قلوبكم
وأعمالكم. في الإسلام، الفارس الحقيقي
ليس من يصرع الرجال بسيفه فحسب،
بل من يملك نفسه عند الغضب، ويحمي
الضعيف، ويعفو عند المقدرة، ويخاف
الله في السر والعلن.

تهد عنترة عميقًا، وشعر وكان هذه
الكلمات تلامس جرحًا قديمًا في روحه،
وتداويه برفق. سألها وعلامات التعجب
لا تزال ترتسم على وجهه:

وَكَيْفَ تُخَاطِبُونَ هَذَا الرَّبَّ؟ أَلِكَلَامِكُمْ
وَزْنَ وَشِعْرٌ، أَمْ سَجْعٌ كَأَقْوَالِ الْكُهَّانِ؟

أجابت ماري وعيناها تلمعان ببريق
إيماني:

بل هو القرآن يا عنصرة.. كلام الله الذي
أنزله على رسوله، ليس بشعر ولا
بسجع، لكنه كلام يعجز البشر والجن
عن الإتيان بمثله، تهتز له القلوب،
وتتشعر منه الجلود.

سألها عنصرة بفضول جارف:

وَهَلْ تَحْفَظِينَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ شَيْئًا يَا
رَعُوبَةَ؟ أَسْمِعِينِي مِنْهُ، أُرِيدُ أَنْ أَرَى مَا
الَّذِي غَيَّرَ قَلْبَكَ وَهَذَاكَ.

وضعت ماري يدها على صدرها، وقالت
بثقة:

بل أحفظه كله يا عنصرة.. أحفظ القرآن
كاملاً بقلبي ووجداني.

استوت ماري في جلستها، وأغمضت
عينها قليلاً لتستحضر عظمة الموقف،

ثم بدأت تتلو بصوت عذب، خاشع،
ينساب كالنهر الجاري في صمت الليل،
وابتدأت من أول سورة مريم:

﴿كهِيعَصْ (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ
زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3)
قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ
الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا
(4)﴾

كان عنبرة ينصت مأخوذاً.

الحروف تنزل على أذنيه بنغم عجيب
وجلال مذهل.

واصلت ماري التلاوة، وصوتها يزداد
شجناً وخشوعاً، حتى وصلت إلى قصة

مريم وعيسى عليهما السلام، وتلت قوله
تعالى:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهُ تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ
جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (27) ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا
كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا
(28)﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ
كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (29) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ
اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ (30) ﴿وَجَعَلَنِي
مُبَارَكًا أَيِّنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (31) ﴿وَبَرًّا
بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ (32) ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (33) ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ (34) ﴿مَا
كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا

قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
﴿35﴾

عند كلمة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، اهتزت أركان
الخباء في نفس عنبرة.

شعر بقشعريرة تسري في جسده القوي
الذي لم تهزه رماح الأعداء ولا سيوف
الكمأة.

تهاوت كبرياء الفارس الجاهلي أمام
جلال الكلام الإلهي.

نظر إلى ماري، فإذ بوجهه الصارم قد
تراخت ملامحه، وتحجرت الدموع في
عينيه اللتين أرهقتا الفرسان في ساحات
الوغي.

ولم يتمالك نفسه؛ انحدرت دموعه ساخنة
على خده الأسمر، تلتها دموع أخرى
غزيرة.. لم تكن دموع حزن أو انكسار،
بل كانت دموع الخشية، والرهبنة،
والسكينة التي لم يذق لها طعمًا طوال
حياته.

صمتت ماري ونظرت إليه بإعظام
وإشفاق، بينما كان الفارس العبسي
يمسح دموعه بطرف رداءه، وهو
يهمس بصوتٍ متهدج من أثر البكاء:

"مَا هَذَا بِشِغْرِ.. وَاللَّهِ مَا هَذَا بِكَلَامِ
الْبَشَرِ. إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً.. تَاللَّهِ يَا امْرَأَةً، لَقَدْ
دَخَلَ هَذَا الْكَلَامُ قَلْبِي فَزَلَّزَهُ!

الفصل التاسع عشر

استحالت لغة الصمت في خباء عنصرة
إلى ترانيم سماوية تسكن جوف الليل؛
فقد وقعت كلمات سورة مريم في
سويداء قلبه موقع الغيث من الأرض
الجدباء.

لم يكن يمر فجر إلا وعنترة جالس يجثو
على ركبتيه أمام ماري، كالتلميذ الذي
يتهجأ حروف الحياة لأول مرة. كان
الفارس الذي لا يشق له غبار في
ساحات الحرب، يجد نفسه غضا، رقيقا،
يكرر خلفها الآيات بنبرة يمتزج فيها
تهيب الفصحاء بخشوع المؤمنين، حتى
أن جدران الخبء الجلدية كادت تحفظ
النعم من شدة تردادها.

وبمعاونة ماري، وصبرها، وهذوئها
الذي يفيض سكينة، أتم عنترة حفظ
سورة مريم كاملة. لم يكن حفظا باللسان
فحسب، بل كان نقشا في الصدر، وأخذ
ينصب قامته الطويلة في غسق الليل،
مستقبلا القبلة، ليتلوها في صلاته

خاشعاً، مستشعراً في كل (كُنْ فَيَكُونُ)
أن قوته وفروسيته ما هي إلا هبة من
ذاك الإله العظيم الذي تصفه الآيات.

ذات ليلة، بعد أن فرغ من صلاته، جلس
عنترة قبالة ماري، ونظر إلى يديها
المرتعشتين من برد الليل، وقال بنبرة
ملؤها التساؤل والعمق:

يَا رَعْبُوبَةَ.. لَقَدْ سَكَنْتَ هَذِهِ الْآيَاتُ
رُوحِي، وَلَكِنَّ نَفْسِي لَا تَزَالُ تَوَاقِعُ
لِمَعْرِفَةِ أَصْلِ هَذَا الدِّينِ. كُنْتَ تُصَلِّينَ
وَتَصُومِينَ خُلْسَةً، وَتَأْتِينَ بِأَرْكَانٍ أَرَى
فِيهَا نِظَامًا عَجِيبًا لَا يُشَبِّهُهُ فَوْضَى
الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي نَعِيشُهَا. أَخْبِرِينِي، كَيْفَ
يُبْنَى هَذَا الدِّينُ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ
وَأَفْعَالِهِمْ؟

اعتدلت ماري في جلستها، وارتسمت
على ثغرها ابتسامة دافئة، وقالت
بصوت ينساب بالبساطة والوضوح:

اعلم يا عنصرة، أن الإسلام ليس مجرد
أمنيات في الصدور، بل هو بناء محكم،
له خمسة أركان شديدة الأوتاد، إذا سقط
منها ركن تهوى البناء كله. وأول هذه
الأركان، وهو المفتاح والأساس: شهادة
أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

عقد عنصرة حاجبيه متأملا، ونبس قائلا:

أَمَّا الْأَوَّلَى فَقَدْ ذُقْتُ حَلَاوَتَهَا؛ فَاللَّهُ الْوَاحِدُ
الْأَحَدُ أَعْظَمُ مِنْ حِجَارَةٍ نَمْلِكُهَا وَلَا تَمْلِكُ
لَنَا نَفْعًا. وَلَكِنْ، مَا بَالُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا
رَسُولُهُ؟

بسطت له ماري باقي الأركان بلسان
بليغ، فشرحت له الصلاة والزكاة وصيام
رمضان، حتى ختمت شرحها قائلة:

والخامس هو حج بيت الله الحرام، لمن
استطاع إليه سبيلا. يذهب الناس فيه إلى
مكة، يطوفون حول الكعبة التي بناها
إبراهيم، لكنهم لا يطوفون لأصنام، بل
لرب بيته. يلبسون لباسا واحدا أبيض،
لا فضل فيه للملك على الرعية، ولا
للسيد على العبد، يقفون في صعيد واحد
يدعون ربا واحدا.

ظلت ماري على هذا الحال عدة أيام،
تشرح له بوضوح وبساطة، وتفصل له
محاسن هذا الدين، وكيف ينظم البيع،
والشراء، والحروب، والرفق بالنساء

والضعفاء. وكان عنترة كالأرض
العطشى، يشرب كل كلمة، ويتفقه في
معانيها، حتى استقر الإيمان في قلبه
كالجبال الراسيات، وفهم حقيقة التوحيد
وجوهر العدالة والحرية التي طالما بحث
عنها في جاهليته.

وفي ليلة هادئة، انبلج فيها نور الفجر
خافتا يداعب أطراف الخباء، التففت
عنترة إلى ماري. كانت ملامحه حازمة
ولكنها فياضة بنور السكينة. أخذ نفسا
عميقا، ونظر إليها بعينين ملوئهما العزم
واليقين، وقال بصوت جهوري ثابت:

يَا مَارِي.. لَقَدْ عَشْتُ طَوَالَ حَيَاتِي أُحَارِبُ
بِسَيْفِي لِأُثْبِتَ حُرِّيَّتِي وَنَسَبِي أَمَامَ رِجَالِ
عَبَسٍ، وَمَا وَجَدْتُ حُرِّيَّتِي الْحَقِيقِيَّةَ إِلَّا

فِي كَلِمَاتِ رَبِّكَ. لَقَدْ فَهِمْتُ الدِّينَ وَتَفَقَّهْتُ
فِي أَرْكَانِهِ، وَلَمْ يَعْذُ فِي قَلْبِي مُتَّسِعٌ
لِلْأَصْنَافِ وَلَا لِلْجَاهِلِيَّةِ.. لَقَدْ نَوَيْتُ يَا
امْرَأَةً، وَجِئْتُ لِأُفَاتِحَكَ فِي أَمْرِ قَضَائِهِ فِي
نَفْسِي.

حبست ماري أنفاسها ترقباً، وعيناها
تتسعان بلهفة، فأكمل عنبرة وعلامات
الفخر الإيماني تكسو وجهه:

أُرِيدُ أَنْ أُعْلِنَ إِسْلَامِي.. أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ
مُسْلِمًا لِرَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَلِكِ
الْمُلُوكِ رَبِّ الْعِزَّةِ وَالْجَبَرُوتِ.. فَكَيْفَ
السَّبِيلُ لِنَدْشِينِ هَذَا الْعَهْدِ؟

الفصل العشرون

أخبرته ماري بأن يكتم إيمانه، فالله يعلم
السر وأخفي؛ خشية أن ينعتَه قومه
بالجنون، فهي قادمة إليه من زمن لاحق
عبر الفجوة الزمنية، أي قبل ميلاد
الإسلام بقرون بالنسبة لزمّنه.

استجاب لنصحها وكنتم إيمانه وظلا
يمارسان شعائرهما الدينية داخل الخباء
فقط. تغيرت طباع عنبرة من الجمود
إلى اللين على يد ماري، وازدادت
مروءته؛ فقام بتوسيع الخباء ونصفه
من الداخل فأصبح كالخبائين بدلا من
الخباء الواحد.

عاشت ماري بأمان في كنف عنبرة،
وعاش هو أسعد أيام حياته بعدما أسلم
لله رب العالمين. قضت ماري أشهر
وحمها بخباء عنبرة كأجمل ما يكون؛
كان يأتيها بكل ما تطلبه نفسها أو نفس
جنينها، موفرا لها الراحة التامة، كما
أتى لها بثلاثة من الجواري يقمن على
خدمتها.

عرضت ماري على عنترة أن تعلمه
قاموسها اللغوي الخاص بعصرها
وزمانها فوافق، فشرعت على الفور
تتشد:

أَتَيْتُكُمْ مِنْ زَمَنٍ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَ .. زَمَانُنَا
بَيْنَ الْمَاضِي وَالْأَيَّامِ
أَتَيْتُ مِنْ عَصْرِ كَانَتْ حَارَتُنَا .. قَبِيلَةَ،
وَالْوَفَاءُ لَهُ مَقَامُ

إِذَا اسْتَتَغَاثَ غَرِيبٌ قَامُوا نَجْدَةً .. وَإِنْ
أَلَمَّتْ بَلَوَى قَامَ أَقْوَامُ
وَكَانَ جَارُ الْفَتَى لِلْجَارِ سَنَدًا .. وَكَانَ بَيْنَ
قُلُوبِ النَّاسِ إِكْرَامُ
وَكَانَتْ الْفَتَاةُ فِي الدَّرْبِ آمِنَةً .. كَأَنَّ
خَلْفَ خَطَايَا أَلْفَ مِقْدَامُ

وَكَانَ لِلْكَبِيرِ فِينَا مَنْزِلَةً .. وَلِلْأَبَاءِ قَوْلٌ لَا
يُلَامُ

وَكَانَ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ شَرِيعَةً .. وَصِلَةُ
الْأَرْحَامِ عَهْدٌ لَا يُضَامُ

وَكَانَ رِزْقُ الْحَلَالِ غَايَةً سَعِيهِمْ ..
يَخَافُونَ الْحَرَامَ وَإِنْ ضَاقتْ أَيَّامُ
وَلَكِنْ جَاءَ عَصْرُ الْمَالِ فَاخْتَلَطَتْ ..
مَوَازِينُ الْقَوْمِ وَضَاعَ الذَّمَامُ

فَصَارَ بَعْضُهُمْ يَغْلُو بِمَا مَلَكَتْ .. يَدَاهُ لَا
بِمَا فِي الصَّدْرِ مِنْ هِمَامِ

وَصَارَتِ الْحِيلَةُ فِي الْقَوْمِ غَايَةً .. وَصَارَ
الصِّدْقُ فِي الدَّرَبِ يُلَامُ

وَلَكِنَّ الْخَيْرَ لَمْ يَرْحَلْ عَنِ النَّاسِ .. وَلَمْ
يَنْطَفِئْ فِي الصَّدْرِ الضَّرَامُ

فَمَا زَالَ فِينَا مَنْ إِذَا اسْتُنْجِدَ بِهِ .. وَجَدْتَهُ
لَا يَبْتَغِي الْأَثَمَ

وَمَا زَالَ فِينَا مَنْ إِذَا قَالَ قَوْلًا .. وَفَى،
وَلَمْ يَجْعَلْ كَلَامَهُ أَوْهَامَ

فَقَالَ عَنَّتَرُ: "أَفِي زَمَانِكُمْ .. بَقَايَا مِنْ
الرِّجَالِ؟"

فَقُلْتُ: "نَعَمْ كِرَامٌ.. تَغَيَّرَتِ السُّيُوفُ
وَالْمَعَارِكُ لَكِنْ .. بَعْضُ الرِّجَالِ كَمَا هُمْ لَمْ
يَتَغَيَّرُوا عَلَى الْأَيَّامِ."

أعجب عنتره بفصاحتها فتابعت:

وَقَفْتُ بِبَابِ ابْنِ شَدَّادٍ .. وَقُلْتُ أَتَيْتُ مِنْ
زَمَنِ بَعِيدٍ

أَتَيْتُ لَكُمْ مِنْ زَمَانٍ حَنُونٍ .. كَرِيمِ الْعَهْدِ،
كَانَ غَيْرَ عَتِيدٍ

زَمَانٍ بِهِ الْجَارُ مِثْلُ الشَّقِيقِ .. وَحُسْنُ
الْوَفَاءِ بِهِ كَالْوَعِيدِ

إِذَا نَادَى مَلْهُوفٌ الْقَوْمَ قَامُوا .. لِنَجْدَتِهِ
بِحَدِّ الْحَدِيدِ

وَكَانَتْ بَنَاتُ الْحَيِّ فِي سِتْرِهِنَّ .. وَصَوْنُ
الْعَفَافِ الْمَصُونِ التَّلِيدِ

وَكَانَ الْكَبِيرُ إِذَا قَالَ قَوْلًا .. أَطَاعَتْهُ أَيْضًا
أَعَاتِي الْجُدُودِ

وَكَانَ الْحَلَالُ لَهُمْ بَغْيَةً .. يَخَافُونَ دَرْبَ
الْحَرَامِ الْمَرِيدِ

وَلَكِنَّ دَهْرِي قَدْ حَارَبَتْهُ .. أُمُورٌ،
وَضَاعَتْ كَثِيرُ الْعُهُودِ

فَصَارَ ذُو الْمَالِ فِي الْقَوْمِ شَيْخًا .. وَإِنْ
كَانَ فِيهِ الْمَشِينُ الْمَعِيدُ

وَصَارَ النَّفُودُ طَرِيقًا لَهُمْ .. يُذَلِّلُ لِلْمَرْءِ
كُلَّ الصِّعَادِ

فَقُلْتُ لِعَنْتَرَةَ: هَذَا زَمَانِي .. بِهِ الشَّرُّ
يَطْفَى، وَخَيْرٌ يَزِيدُ

فَمَا زَالَ فِينَا مُرُوءَةٌ زَمْنِكَ .. وَمَنْ يَهَبُ
النَّجْدَةَ لِلْمُسْتَجِيدِ

فَقَالَ الْفَارِسُ: إِذَا كَانَ ذَاكُم .. فَفِيكُمْ مِنْ
الْمَاضِي الْكَرِيمِ خُلُودٌ.

سر عنترة بإلقائها وسألها المزيد، فقالت
بصوتٍ هادئٍ: حسنًا، لأخبرنك يا عنترة
عن زمن الخير والبركة، زمن الطيبة
والود، زمن الرحمة والرافة، زمن
القلوب الصافية والأرواح النقية، زمن
الأمن والأمان.. عن عصر الثمانينات
أحدثك.

أتعلم يا عنصرة، قد ابتكر البشر طرقًا
جديدة بفضل العلم جعلت التواصل بينهم
سهلاً للغاية.

تبسم عنصرة وقال:

مِثْلُ مَاذَا يَا رَعْبُوبَةُ؟

ماري مبتسمة: مثل المراسلة عبر
صندوق البريد، والتسجيلات، وأخيرًا
التليفون!

جلس عنصرة قبالة ماري والدهشة تعلو
محياء، يقلب كفيه عاجزًا عن استيعاب
تلك العوالم التي تقصها عليه.

كانت ماري تبسم وهي تراه يحاول
تخيل "مصر في الثمانينيات"،
فاسترسات تشرح له التغييرات

والابتكارات التي وصل إليها البشر في
الأزمة اللاحقة لعصره.

قالت ماري بنبرة حاملة: لو رأيت بيوتنا
هناك يا عنصرة! لدينا صندوق خشب
وزجاج يُدعى "التلفزيون"، يجلس
أمامه الناس فيرى الرجل نساءً ورجالاً
يمشون ويتحدثون، ويعيدون تمثيل
المعارك والقصص أمام عينيك وكأنهم
داخل الصندوق!

صاح عنصرة مستكراً، واعتدل في
جلسته وهو يمسك مقبض سيفه:

مَاذَا تَقُولِينَ يَا امْرَأَةً؟! رِجَالٌ وَنِسَاءٌ
دَاخِلَ صُنْدُوقٍ زُجَاجِيٍّ؟! تَاللَّهِ إِنَّ هَذَا
سِحْرٌ مُبِينٌ! أَيْسَجُنْ مُلُوكُ زَمَانِكُمْ
السَّحَرَةَ وَالْقُصَاصِينَ فِي صَنَادِيقَ

لِيَتَسَلَّى بِهِمُ الْعَوَامُّ؟! وَمَاذَا لَوْ غَضِبَ
أَحَدُ الْفُرْسَانِ دَاخِلَ الصَّنْدُوقِ وَاسْتَلَّ
سَيْفَهُ، أَيْكَسِرُ الزُّجَاجَ وَيَخْرُجُ لِيُقَاتِلَ
الْمُشَاهِدِينَ؟!

ضحكت ماري حتى دمعت عيناها من
طرافة تخيله، وقالت: لا يا عنصرة، ليسوا
رجالاً حقيقيين، بل هي صور وألوان
تجري عبر الهواء! ولدينا أيضاً
"المذياع"، صندوق أصغر يخرج منه
صوت الغناء والقرآن والأخبار، وصوت
رجل جهوري يذيع أنباء الدنيا وأنت
جالس في مخيمك.

هز عنصرة رأسه متعجباً وقال:

صَوْتُ بِلَا جَسَدٍ؟! هَذَا لَعَمْرِي أَشْبَهُ
بِهَوَاتِفِ الْجَنِّ الَّتِي نَسْمَعُ عَنْهَا فِي

الْقَفَّارِ! وَلَكِنْ كَيْفَ يَتَرَا سَلُ عُشَّاقُ
زَمَانِكُمْ وَشُعْرَاؤُهُ إِنْ بَعُدَتْ الْمَسَافَاتُ؟
أَيَرْكَبُ الْمُسْتَصْرِخُ نَاقَتَهُ لَيْلَ نَهَارٍ؟

أجابت ماري: بل لديهم "البريد"، رجال
مخصصون يحملون الرسائل الورقية في
حقائب، ويركبون دراجات حديدية
ليوصلوها إلى عتبة بيتك بقرش صاغ
قليل! والأعجب منه هو "التليفون"،
جهاز ممتد بأسلاك، ترفع منه قطعة
تضعها على أذنك، وتدير قرصًا بأرقام،
فتحدث صاحبك وهو في أقصى بلاد
الصعيد أو الإسكندرية، وتسمع نبذة
صوته وتضحك معه في نفس اللحظة!

وقف عنثرة مذهولاً، وضرب كفًا بكف
وهو يقول بفكاهة واستغراب:

تَتَحَدَّثِينَ مَعَ رَجُلٍ فِي آخِرِ الْأَرْضِ عَبْرَ
جِدَارٍ؟! تَاللَّهِ لَوْ فَعَلْتُ هَذَا فِي عَبْسٍ
لَقَالُوا جُنَّ ابْنُ شَدَّادٍ، وَلَقَيَّدُونِي بِالثَّقَافِ
وَأَخَذُونِي إِلَى الْكُهَّانِ لِيَطْرُدُوا الْجِنَّ مِنْ
رَأْسِي! كَيْفَ لِعَقْلِ أَنْ يَسْتَوْعِبَ رَجُلًا
يَتَكَلَّمُ فِي حَدِيدَةٍ فَيَسْمَعُهُ مَنْ خَلْفَ
الْبَحَارِ؟!

سكنت ضحكات ماري تدريجيًا، وحلّت
مكانها نبرة من الوقار الشديد. نظر إليها
عنبرة، وقد تلاشت دعابته، وسألها
بنبرة جادة يملؤها الشغف:

يَا مَارِي.. إِنَّ مَنْ أَلْهَمَ بَشَرَ زَمَانِكَ كُلَّ
هَذَا الْعِلْمِ لَرَبِّ عَظِيمٍ. وَلَكِنْ، أَخْبِرْنِي
عَنْ هَذَا النَّبِيِّ الَّذِي أَتَى بِهَذَا الدِّينِ..
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. كَيْفَ

كَانَ وَصْفُهُ؟ كَيْفَ كَانَ شَكْلُهُ بَيْنَ
الرِّجَالِ؟ وَكَيْفَ كَانَتْ أَخْلَاقُهُ؟

استوت ماري في جلستها، وامتلأت
عينها بنور المحبة والتعظيم، وقالت
باستفاضة تشق صمت الخباء:

أَمَّا وصفه يا عنترة، فكان أبهى الناس
من بعيد، وأحسنهم وأجملهم من قريب.

لم يكن بالطويل الذاهب ولا بالقصير
المتردد، بل كان ربعة من الرجال.

وجهه مستدير كالشمس والقمر، أبيض
مشرب بحمرة، إذا ضحك أو تكلم روي
النور يخرج من بين ثناياه.

عيناه شديدتا السواد، واسعتان، وفي
أهدابهما طولٌ يضفي عليه مهابة لا
تدانيها مهابة الملوك.

أصغى عنثرة بكامل جوارحه، وكأنه
يرسم الصورة في مخيلته، فتابعت ماري
بوجدان فياض:

وأما روحه يا فارس عبس، فكانت
الرحمة المزجاة للعالمين؛ فهو نبي
الرحمة الذي ما خاض غزوة قط رغبة
في عدوان، ولا طلباً لجأه أو سلب
ممتلكات، بل كانت غزواته دفاعاً عن
الحق، ودفعاً للظلم، ورداً للعدوان بعدما
أخرج وقومه من ديارهم بغير حق.

وكان إذا سير الجيوش، يخرج بنفسه
يُوصي القادة بفروسية وإنسانية لم
تشهدا العرب ولا العجم، فكان يقول
لهم: اغزُوا بِاسْمِ اللَّهِ، لَا تَغْدِرُوا، وَلَا
تَغْلُوا، وَلَا تَمْتُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيَدًا، وَلَا

امْرَأَةً، وَلَا شَيْخًا كَبِيرًا، وَلَا تَقْطَعُوا
شَجَرًا، وَلَا تَعْقِرُوا نَخْلًا، وَلَا تُرَوِّعُوا
عَبْدًا فِي مَحْرَابِهِ وَلَا رَاهِبًا فِي صَوْمَعَتِهِ.

تأوه عنترة من الدهشة، واهتز صدره
تعجبًا وهو يتذكر قسوة معارك الجاهلية
التي يُمثَّل فيها بالقتلى ويُستأصل فيها
الشجر والنسل!

أكملت ماري بنبرة يملؤها الشجن:

ولم تقف رحمته عند حدود البشر يا
عنترة، بل فاضت حتى وسعت الشجر
والحيوان؛ أتعلم أن جذع نخلة يابس كان
يخطب عليه في مسجده، فلما صُنِعَ له
المنبر وتركه، حنَّ الجذع وأنَّ لفراقه
أنينًا كأنين الصبي المفقود حتى ارتج له
المسجد، فما كان منه إلا أن نزل عن

منبره وضمه إلى صدره ومسح عليه
برفق حتى سكن واطمأن!

وجاءته يومًا "حُمّرة" — وهي طائر
صغير ضعيف — تُرفرف فوق رأسه
وتصرخ بلسان حالها تشتكي أن بعض
أصحابه أخذوا فرخيها من عشّهما،
فغضب النبي الرحيم لجزعها وقال
لأصحابه: "مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟! رُدُّوا
عَلَيْهَا وَلَدَهَا!"

ثم رفعت ماري رأسها وهي تتحدث عن
مكانته عند رب العالمين:

وَأَمَّا تَكْرِيمَ اللَّهِ لَهُ يَا عُنْتَرَةَ، فَنَاهِيكَ عَنْ
رَبِّ أَقْسَمَ بِحَيَاتِهِ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ:
{لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}،

ورفع له ذكره في كل أذان وصلاة إلى
قيام الساعة.

كرمته بالمعجزات الظاهرة؛ فنبع الماء
من بين أصابعه الشريفة حتى أروى
جيشًا كاملاً، وسلم عليه الحجر والشجر،
وأسرى به ربه في ليلة واحدة من مكة
إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى
السموات العلا، حتى وصل إلى مقام لم
يطأه ملك مقرب ولا نبي مرسل! وجعله
صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة،
حين يتبرأ جميع الأنبياء من الشفاعة
فيقول هو بنفسه: "أَنَا لَهَا.. أَنَا لَهَا".

جاء ليتمم مكارم الأخلاق، فهو خاتم
الأنبياء والمرسلين، لا نبي بعده،

ورسالتة باقية إلى أن يرث الله الأرض
ومن عليها.

تنفس عنترة الصعداء، وشعر برقعة
غريبة تسري في قلبه الغليظ، لمعت
عيناه بنور الشوق، وتدحرجت الدموع
على خديه مهابة وتعظيمًا لرسول الله
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يهمس
بصوت خافق:

تَاللَّهِ إِنَّهُ لَنَبِيٍّ كَرِيمٌ.. وَإِنَّ رَبًّا أَرْسَلَهُ لَرَبِّ
يَرْحَمُ الْعِبَادَ وَيَسْتَحِقُّ أَنْ تُعْفَرَ لَهُ الْجِبَاهُ!

خرج عنترة، وبقيت ماري وحدها في
الخباء تسترجع دفء الكلمات ومحبة
النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفجأة،
انبعث صوت من خلف ستار الخيمة،
كانت إحدى الجواري من خدم الخباء،

تُدعى "بريرة"، وهي جارية كانت تخفي وراء ملامحها المستكينة قلبًا خائئًا، إذ كانت عينًا مزروعة لبني "ذبيان"، الأعداء الألداء لعنترة.

اقتربت الجارية بخنوع مصطنع وقالت بصوت متهدج: يا سيدي ماري.. إن عنترة يطلبك على عجل عند أطراف الحرة خلف الوادي.. لقد جفلت ناقتة المفضلة وأصابها مكروه، وهو يستنجد بطبك وعلمك الذي جئت به من مصر.

انتفضت ماري مدفوعة بنقائها وخوفها على عنترة. لم تشك في الأمر، وهرعت خلف الجارية متسللة بين الخيام في عتمة الفجر الأولى. وكلما توغلتا في شعب الجبل، كان الصمت يزداد وحشة.

وفجأة، انمحت الجارية واختفت بين
الصخور، لتجد ماري نفسها محاصرة
برجال غلاظ شداد يشهرون سيوفهم،
يتوسطهم "شأس بن قيس" من الد
أعداء عنزة!

صرخ شأس بضحكة لئيمة حاقدة: وقع
الصيد الثمين! اليوم نكسر كبرياء العبد
الأسود في عرضك ودمك!

تسمرت ماري في مكانها، وتملكها رعبٌ
صاعق تذكرت معه جنينها. اهتزت
أركانها، وصرخت بأعلى صوتها صرخة
شقت الوادي مستتجة: عنزةةةة!.. يا
عنزةةةة!

ومع تقدم الرجال نحوها لتقييدها، زاغت
نظرات ماري من شدة الهلع وضيق

الأنفاس، ولمحت من بين صخور
المغارة طيفاً نورانياً مهيباً يتقدم من
بعيد بسكينة تخترق العتمة.. طيف
زوجها الراحل "عبد القوي" بثيابه
البيضاء الناصعة!

لم يتحمل جسدها الضعيف وطأة الرعب
والذهول؛ فمادت الدنيا بها، وثقلت
جفناها، وسقطت مغشياً عليها لتغيب
عن الوعي تماماً، بينما اندفع الطيف
النوراني برفق، وانحنى ليحملها بين
ذراعيه ويدخل بها إلى الغرفة الهادئة.

تمت بحمد الله

مريم توركان